
HUSSAIN ALMAHROOS
حوّاء
حسين المحروس











حوّام / رواية
حسين المحروس / روائي وفوتوغرافي من البحرين
الطبعة الأولى، 2008

المؤسسة العربية للدراسات والنشر
بيروت،لبنان

التصميم والإخراج الفني: **حسين فخر**/ البحرين
صورة الغلاف: **حسين المحروس**
خطوط: الفنان **عباس يوسف** / البحرين
الغلاف الخلفي: من مسوّدة نص (حوّام)

رقم الإيداع بدائرة المكتبات العامة: د.ع 2008/6934م
رقم الناشر الدولي:
ISBN 978- 99901- 519- 5- 4

للتواصل:
hmahroos@gmail.com
ص.ب: 1924 - المنامة



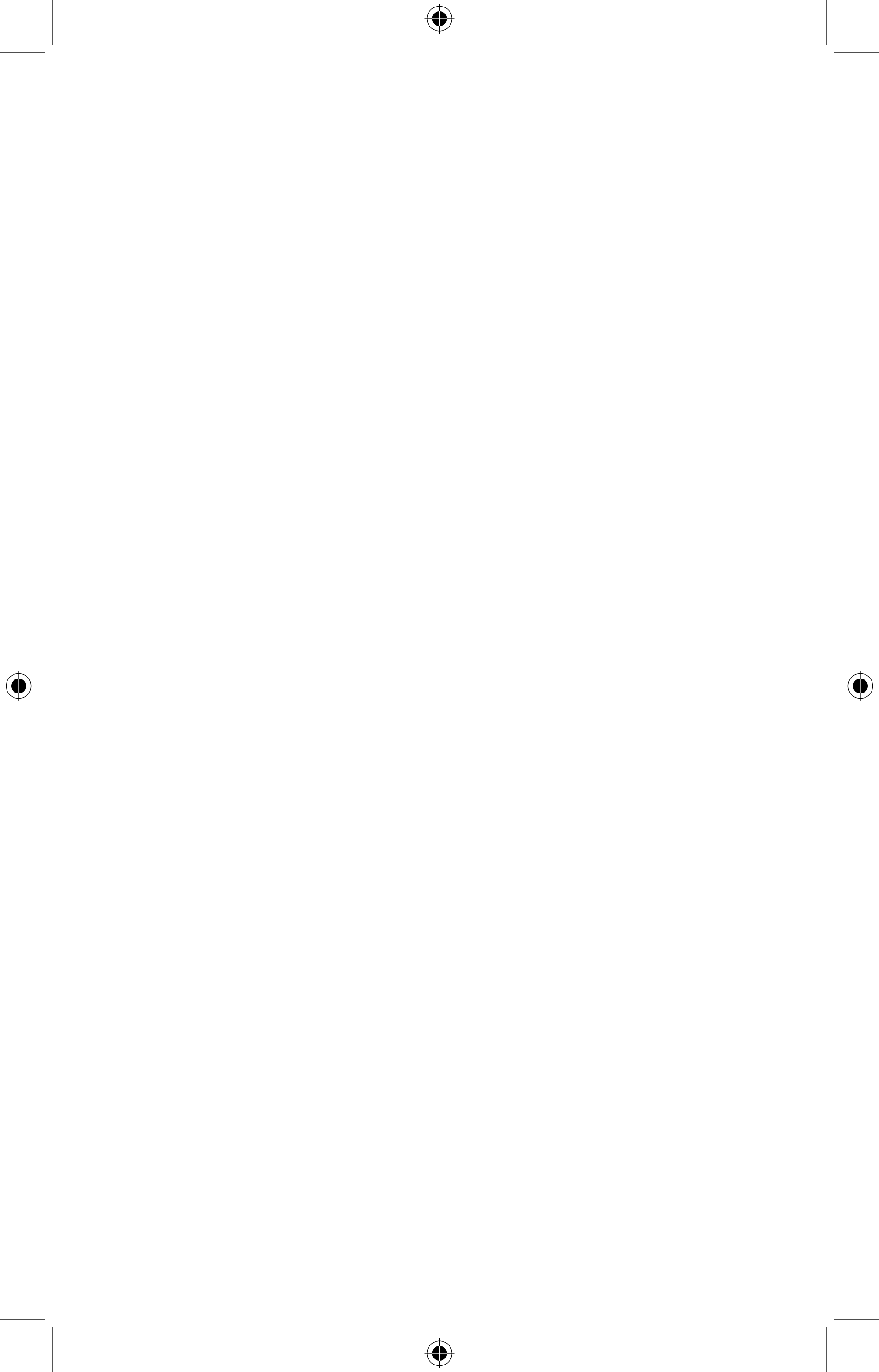







حسين المحروس









حدثتني جدتي مريم قالتْ:
إذا كثر خروج المرأة في الحيّ،
وألفتتْ في مشيتها بين البيوت
نعتوها بـ «**حوّام**»











تتسعُ الممراتُ في البستان للفراشات، لطقطقة مضخات الماء، للحمام وهديله، للياقة العصافير الدورية، لسيارته، لنية الغدر بامرأة، ولصوت تراتيل القرآن من القرية. ربّما لأنّه البستان، ربّما لأنّه الصباح في البستان. تأبّط كاميراته. هذا طقسه قبل التصوير: أن يمتلئ بالمكان أولاً. يتنفسه حتى يراه. أن يملأ كاميراته به ثانياً. أليس التصوير امتلاء؟ يخرج خفيفاً ويعود مثقلاً بالصور. يسألونه عمّا فيها فيقول: صور. يقولون: فقط؟ فيقول: وحفيف أجنحة الحمام.

في البستان يمشي وحيداً كعادته ويلعبُ بالبصر، يسخر ممّا مرّ وما سيأتي. كلما بدت له الأشياء عبثية ازداد حبّا لامرأة متزوجة يتردد قلبها بين خوفها وبينه، فلا هو قادر على نسيانها لحظة ولا هي متهيئة لحماية نسيانه. كلّ ما يعرفه هو أنّها صبية النار، وأنه صبي الصور.

ظنّ أنه لم يكن ينتظرها. جاءت البستان تمشي على غدر. وقع الغدر على الغدر فتوقفت التراتيل في القرية احتراماً لخلوتهما. لم يرَ الفراشات بهذا الهياج قطّ،





والكاميرا الممتلئة به لا تسعف، والممرات لا تسفر. سرى خدر التوت وألم أسفل الصدر حتى أصابع القدمين. ولكثرة ذوبان القند على جسدها سرى لها نملٌ كثير فراحت تزيله فلا ينفكّ حتى يموت. جسدٌ كلّه ساحاتُ كرامة. الحبُّ امرأة من غدر.

لم تكن المرّة الأولى التي يتعمد فيها النظر إلى المسافات بين أزرة قمصانها. يرفع يديه: «اللهم غضّ بصرك عن بياض نهد فارسي في المسافة بين زراري قميص أسود». تضربه على خده برفق وتغادر بضحكتها. احتجّت ثلاث مرّات: في المرّة الأولى ابتسمت لجهة عينيه، وفي المرّة الثانية قالت: مازال بصرك زائغاً؟ ضحك ثمّ قال: زائغ؟ وهل رأيتِ مصوراً يغضّ بصره؟ ربّما يغضّ عن تأويلات صوره.

وفي المرّة الثالثة من احتجاجها كان ينظر في المسافة بين زراري قميصها جهة البطن لا الصدر.. رأى نقطاً دائرية الشكل صغيرة، انتظم لونها و لم ينتظم قِطرها، ولا المسافات بينها. لم يخبرها لكنّها رأته فشدّت قميصها. سوّت المسافات، واحتجّت بشدّة هذه المرّة. يثور



الإنسان حين يفقد المسافات. لم يخبرها أنّه رأى بطنها بستان توت.

يعزّ المكان فتصنعه له في خاطر عينيها، مثل مصور يهبُ المكان في صوره شيئاً من خاطره. لا مكان للجلوس في البستان غير جسور الألواح الخشبية على جداول الماء. جلس على واحد منها، فلما لم يتسع لها، اتخذت من فخذه مقعداً. صار رأسه في صدرها. مدّت يدها اليمنى على كتفيه وطوّق خاصرتها قال لها: «أحبّكِ؛ لأنّكِ دائما على وشك من أيّ شيء».
وضع رأسه على صدرها فمالت. باغتَ الجلسة بلبلٌ على النخلة الصغيرة جوار جدول الماء قالت «إنّه مضطرب».
في اليوم الثاني أخبره الشاب إبراهيم البستاني أن لصوص البساتين سرقوا عشّ بلبل من تلك النخلة وبه فرخان حديثا التفقيس. شخص من قرية «كرانة» اعتاد سرقة أعشاش البلابل. هو بارع في ذلك، خفيف الحركة، يدرس حركة البلابل ولا تتوه عنه أعشاشها على الرغم من ذكائها. سرق مرّة عشّ بلبل من نخلة قصيرة والأنثى فيه تحضن بيضها. سرقه بالأنثى. هذا لا يحدث. بعد





يومين وجدتُ بلبلاً ميتاً بين جدع النخلة وأصل سعفة فيها. ربما هو زوجها. قال «هل رأيتَ شخصاً يسرقون منه زوجته الجميلة فجأة وهو لا يدري؟ أكيد راح يموت»

قامتْ من على فخذه، لم تكنْ ثقيلة. أخذتْ كاميراته. حاول عضّها في مؤخرتها لكنّها فطنتِ المباغتة، هربتْ صارخةً ضاحكة. راحتْ تُصوّر بقايا العشّ الصغير في النخلة. كأنّها تصوّر منذ زمن. لا تحتاجه كثيراً، وليس في داخله معلِّم. ثمّة ما لا يمكن تعليمه في التصوير الفوتوغرافي: صناعة الالتفاتة. لا تكون الالتفاتة إلاّ على قدر ما في الشخص من الحسّ. وهي امرأة كلّها حسّ، الالتفاتة عندها لا تُشبه الالتفاتة.

استندتْ على يده لتعبر جدول الماء. اقتربت. نظرتْ في عينيه فرأت ما يدخره لها في مجازات الضوء. مشيا معا في شكل دائري يشبه دوران الحمامة حتى صارا أسفل شجرة التوت المثمرة. صارت الشفة على الشفة، ودوائر المشي دوائر كهرباء في الجسد كلّه. ولكثرة التقبيل صارت شفاههما محابر ضوء. انفتح الوجه كلّه





على القلب كله. أليست المعاني مطروحة في الوجوه؟ أليست الفواكه كلّها من التوت.

لم يحدث له من قبل: أن يرى الوجوه كلّها في لفتة واحدة من لفتاته. أن تأتي التأويلات كلّها في صورته. إما أن تكون هذه الفتاة كاذبةَ صور أو أن يكون هو بارعاً في الادعاء. قالت له مرّة : «أنا امرأة عقل» وإنّه دائم اليقظة حتى ساعة الاسترخاء. فلماذا إذن كلما قال لها «أحبّك» يحمرّ وجهها كأنّ التفكير بالقلب يستملك امرأة العقل فيها، وتنسى أن زوجها من فاضل عجينة الثورة؟ وتنسى حجابها؟ ضميرها المحصور في عقد الزواج؟ تنهض في آخر حمرة الموقف تقبّله في خدّه، تطلب منه أن يكفّ:

–لا أريد أن أؤذي زوجي. تلاحقني صورته كلما اقتربتَ منّي. كأنّي أخون. أفّ.. طيّب.. دعنا نكذب.

– أحب الكذب في الصورة؟

–نحن صور. دعنا نقول: لا أنا أحبك ولا أنت تحبني.. فقط.

تشكو ممّا تسميه «الضمير» اليومي، ويشكو إليها قلّة حيلته في حضورها وغيابها: لماذا عليه أن لا يهندس





الحبّ إلا في امرأة متزوجة؟ ما حاجته في حبّ ينتظر أن يأخذ بيده إلى امرأة غير مشغولة الجسد؟ وكانت مشغولة الجسم. الفوتوغرافي لا يضع شروطاً في جهة التصوير غير الضوء، حتى لو كان بقايا ومضة صوفي. وهي امرأة كلّ جهاتها ضوء إلا الخال في جنّة الوجه كأنّ ابن عربي قصده في قوله «ما أشدّ ظلام هذا النور».

قال لها «عيناك سرّادتان» اقترب يشتمّ رائحة العطر أسفل أذنها. لا يعرف زوجها خزانات العطر والخيال في وجهها. رجع برأسه مسافة يسيرة. تغيرت الحرارة، الرائحةُ، صوت جداول البستان، أصوات الهواء بين شفتيّه وخدها، سيرة رغبته فيها، قوانين الإبصار والبصائر. رأى بؤر ضوء بنية اللون. قرأ يوماً: «الأشياء المضيئة من ذاتها لا يمكن أن تلتصق بسطح البصر، لأنها منحصرة في الكواكب والنار». لا.. المسافة تكفي لإرهاق مصور فوتوغرافيّ واثق من حيرته في كلّ ملليمتر حركة. وضع لها خيالاً جديداً على خدّها، ظلّ يتسع.







كلّما قصد حيّها الجنوبي قالت له:

«هاتِ البصرَ كلّه معك»..

ظلّت تصف الطريق إلى بيت زوجها، وليس في باله غير الطريق إليها. في البستان لا توجد طرق وممرات منظمة. الأشجار والنباتات فيه على هندسة الخواطر: خاطر البستاني، خاطر الشجرة، خاطر العصافير، وخاطر الأرض. وعندما يقرر إبراهيم البستاني تخصيص مساحات (أشْرب) جمع (شُرْب) لخضروات معينة يتحوّل (الشُّرْب) إلى حفلة من النباتات المختلفة تنمو بإذن الماء وتلك الخواطر، فلا يدخل الضيق البستاني ولا يكترث. ليس في البستان جهة تشبه جهة. البساتين لا تتشابه، يتوق إليها، يحبّ رائحتها التي تتغيّر كلّ لحظة. في البستان يضجّ البصر وترتاح العين. لا شيء فيه يشبه مثيله. العين على خطّ المفاجآت. لا نظام. لا عقل. أغصان أمزجة متداخلة. لا فراغ إلا وينتظر نية حياة جديدة بالرغبة أو بالمصادفة وربما بإذن الله. البساتين





خواطر. كان يسميها البستان. تبتسم، تقول «الله»، تستدرك في خفة الفرح وتقول «أنا اسمي بدرية».

فلما وصل الحيّ وجد بدرية تقلّب وجهها في ثلاثة مداخل كلّها تؤدي إليها. سلّم عليها فردت و لم تكمل. تركت الحال يهبه ما يحتاجه ليقلّب عينيه فيها. لا يحتاج إلى أكثر من حركة الهواء الشفيف بين عينيه وعينيها، شرط البصر. قالت: «انتظر» ودخلت البيت. عادت بكوب عصير برتقال بارد. كم يحبّ عصير البرتقال، لون البرتقال، واستدارته في الخاطر. كلّ ما فيه رائحة البرتقال حيّ، لافت، حساس، لاذع، مراوغ، متمرّد، متغيّر، ضاجّ، ضاحك، عنيد، غميق في إشاراته. ربّما قصده ابن خلدون في «مقدمته» عندما قال « وإذا فسدت أحوال الأشخاص واحداً واحداً اختل نظام المدينة وخربت. وهذا معنى ما يقوله بعض الخواصي أو الحواضر: أن المدينة إذا كثر فيها غرس النارنج تأذنت بالخراب... وإنما معناه أن البساتين وإجراء المياه هو من





توابع الحضارة». مع أنّه لم يقل «البرتقال» لكنه شعر أنّه يعنيه. إلا البرتقال يا بن خلدون، لا معنى لتاريخ بدون رائحته ولونه ولبّه وقشره والزبدة البيضاء بينهما.

لم تُبقِ بدرية من الأسود فيها غير رضى زوجها، وأمها، وأبيها ونفر من أسرة أبيها، وزوج أختها: ختم الثورة وخاتمها في الحيّ، وأخيه المعتقل، وأخيه الآخر المنفي. أزياء أولاد الثورة أزياء الثورة. الخروج على ولايتها يبدأ من الأزياء. هل كانت الثورة تُبغض العين؟ هل تكره الثورات الصور؟ يعرف.. الثوراتُ لا تحبّ البساتين. ابن خلدون أيضاً، وهو يحبّ صور البرتقال في بستانها أكثر ممّا يحبها أخوان الصفا في رسائلهم: «ادخل البستان، وكل ما شئت، وشم ما شئت، واختر ما شئت، وانظر كيف شئت، وتنزّه أين شئت، وجىء من أين شئت، وتلذذ وتنعّم وتطيّب وتنسّم»

لشدة الحرارة ظنّ أن أزقة الحيّ خالية من المارة. ثلاث نساء يقفن جوار استدارة محراب المسجد الصغير،





متسربلات بالسواد منشغلات بالكلام. كلاهما يلازم المرأة هنا: السواد والكلام. استدارت إحداهن، فتحت وجهها عليهما، فانفتح الكلام كلّه. عادت إليهن بصور للكلام فاستدارت الثانية.. الثالثة.. ولِسِعَة الرواية عندهن ما كنّ ينظرن جميعهنّ في آن.

أقسم بالله لها أن صورته هناك بينهن الآن لا تشبهه، ولا تشبه أيّ شيء فيه، وأنّه لو أحضر كاميراته وصوبّ عدستها على وجه إحداهن لكانت الصورة : «وجه امرأة ترى لتروي». انتبهتْ بدرية لوجهة عينيه واكتمال السؤال فيهما، قالت:

– يعرف النساء أنّك لست زوجي.

– هل أغادر؟

– لا...عادي.. أودع الله في نساء حيّنا حاسة الشمّ في العيون، والقدرة على رؤية ما فات. عادةً لا تتجمع النساء إلا عصراً، أو قبل الغروب.. قيل اليوم يطلق سراح «زكريا» ابن جارتنا، الزوجة الثانية لجارنا.. قبل أقلّ





من عام.. داهمت الشرطة بيتهم في الفجر كعادتهم، اعتقلوه.. قِيل منشورات ومطبوعات غير مرخصة.. إطارات سيارات مخزنة للحرق في الشوارع. وقيل أن المخابرات وجدت صورته في ألبوم صور معتقل آخر. هو شخص عادي. يعشق الحمام. يقولون إن رأسه حمامة. لم يكمل دراسته الأولى على الرغم من ذكائه. صار شخصا مهما، وربّما يصبح قائدا أيضاً. مَنْ يدري؟ «ترفع كتفيها.. تضحك»

زاد العرق في وجهها.. النساء في الشارع. كثرت المجموعات في زوايا الظل في الحيّ. كثرت العيون نحوهما.

– سأغادر أفضل.

– قلت لك عادي.. هل أنت بخير؟.. خائف من شيء؟ خائف من القائد الجديد أبو الحمام؟..«اكتفى بالابتسامة».

لحظة مغادرته هدأ كلّ شيء فيها وكأنّ بدنها لم يهتزّ



قبل قليل بالضحك. عيناها فطنة براعم التوت في آخر الشتاء. قال لها مرّة: يدخلني حزن شديد كلما افترقنا.. فقالت: يُصيبني الحزن ذاته. هذا هو القلب. ربّما لأنّي.. لأنّكَ ستصبحُ بعد قليل غريبَ الدارِ والحسِّ.






تقلّب

في معاني الحمام فتقلّب فيه حتى قيل في الحيّ: «في رأس زكريا حمامة». سموه «أبو الحمام». كان وحده ينظر في عين الحمامة فيعرف جنسها وعمرها، وصحتها من مرضها، وقدرتها على الزهو والجذل واللهو والشكل بعد القَمْط، والتي أفرخت والتي لم يحن ميقات مبيضها. وكان الآخرون إذا أرادوا ذلك قلبوا الحمامة ونظروا في مسافدها، أو احتجوا بلونها فإذا تشابه عليهم اللون لم يأمنوا الغلط. يقضي ساعات طوال في أقفاص الحمام، يمعن وينعم النظر فيها فخَبُرَ عنها كلّ شيء. يمسك ذكر الحمام إذا فرغ من أنثاه بيد واحدة خاطفة وينظر في عينيه فيعرف أنّه أودع في رحم حمامته ما يصير بيضاً أو لا. وهو علم فطر عليه ذكر الحمام وحده.

هو أشهر صيادي الحمام الهارب في البلاد. يلاحقه قفزاً من سطح إلى سطح يعينه طول ساقيه وخفّة جسمه واستطالة جرأته. رأى سير البيوت من سطوحها وحكى بعضها. فضح جارتهم مع «عبّود» السافل فوق السطح وصارت جملته فيها «كم هي كريهة من غير حجاب؟»





علامة تكشف وتُلفت. قال مرّة في جمع من الشباب «المرأة حمامة..اعرفوا الحمام تعرفون النسوان». يقابل بين الإنسان والحمام في وظائف الأعضاء، ولطائف الحركة والسكون ولا تخرجُ أمثلته وتشبيهاته عن ذلك. ينتصر للحمام على فتور الإنسان بعد لقاء زوجته. يُعلي شأن ذكر الحمام ساعة يطلب حمامته ينفش ريشه، يتكبر، ينفض ذنبه ويضرب بجناحه الأرض، يعلو برأسه ويهوي، يملأ مكانه به. يحفظ ما جاء في الأثر عن الحمام «كونوا بُلهاً كالحمام»، يحرّك رأسه في إشارة لفهمه للأثر لكنّه لا يشرحه، ولا يقول شيئاً غير « بُلهاً بُلهاً ياجماعة». قام شاب نذل أراد إحراجه:

– ممكن تشرح لنا معنى «بُلهاً»؟

– مثل بلاهة أمّك الطيبة.

يضحكون، يترك تعليقه شيئا في نفس الشاب النذل فلا يتركه يغادر الجلسة حتى يمازحه ويشرح له صدره بحكايات عن الحمام تُؤنسه:

– أحضرت مرّة مصوراً فوتوغرافياً يصور الحمام .. كان (الحمار) خائفاً من دخول القفص الكبير. قلت





له: لا تخف، هذه حمام وليست صقوراً. خرج الجبان من القفص يقول «إن حمامة تنظر إليه بشراسة» . هل الحمامة أكثر شجاعة منه؟ يعني لو كان أمامه حادث فيه دم سيتركه دون تصوير؟ مصور يخاف؟ أقنعت السافل فعاد. دخل القفص يُخفي الكاميرا حتى لا يعرف الحمام نيته. المهم... إلتصق بالجدار مثل سحاحير الحمام، قال لي: «أُصور الحمام بورتريه»؟ قلت ليه: خير؟ قال: بورتريه أصورهم؟ قلت: ما فهمت قصدك.. خير؟ قال: أصور وجوهم فقط؟ البورتريه يعني تصوير الوجوه. قلت للجبان: الحمامة ليست وجه. الحمامة كل شيء فيها. الحمامة مثلنا إنسان يطير. رأس الحمامة كلّه وجه. كان يضحك ويهز رأسه. قال:

–«إذن سوف أصور كل حمامة صورتين: صورة بورتريه وصورة كاملة».

قام يصور الحمام من بعيد حتى أصيبت عيون الحمام وعيوني بالعمى لشدّة ضوء وامض (فلاش) الكاميرا. وامض شديد السطوع والدنيا نهار؟ طارت حمامة فاصطدمت بجدار القفص. صارت لا ترى. انتهى من





التصوير فقال "ظهري يُولمني". المصور الخائب كأنّه صوّر طيور سفينة نوح كلّها. بعد يومين أحضر الصور. نظرت فيها .. قلت له: أين حمامي؟ قال : في الصور! قلت له: هؤلاء ليسوا حمامي. البيضاء صارت خضراء، والبنية صارت زرقاء، والسوداء صارت رمادية شكلها غريب ونادر، ورأس الحمامة الذي قال عنه «بورتريه» صار صغيرا جداً . كان الفراغ في الصور أخضر.. هل رأيتم فراغا أخضر؟ وعيون الحمام في كل الصور حمراء مخيفة جداً كأنّها طيور جهنم.. كأنّ إبليس فيها. كعادتي أنا أصور الحمام كلّ شهر. قلت في نفسي أغيّر المصور لأنّ المصور السابق دائم العجلة، يعمل في صحيفة فاشلة إعتاد أن يصوّر الناس لها مصفوفين مثل طوب بيتنا. أنا خاطري أن تصبح صور الحمام مختلفة تماماً. بعد فترة اتصلت بمصورة فوتوغرافية قلت لها: تأتين معي في السطح نصور حمامي ... هههههه .. خافت على نفسها.. التبس عليها معنى الحمامة.. اعتذرت.. ولأوّل مرة يمرّ شهر من غير تصوير الحمام.

انتهت الحكاية بالضحك. علت ضحكات الشاب



النذل الموتور. قام زكريا يملأ (استكانات) الشاي الأحمر ولا شيء غيره لوقت العصر. الشاي في جلسات زكريا حكايات ساخنة. مغرم بالسرد والحكي، ممتلئ بالطيبة، يعشق الحمام والبحر والتواصل، والأماكن المفتوحة خصوصا بعد سجنه الأخير الذي ظلّ فيه عشرة أشهر إلا يومين كما حسبته أمّه . طويل يحني هامته كلما دخل أقفاص حمام أصدقائه، ويحتجّ على ضيقها. ليس في زكريا وسامة. سمرته داكنة، في صدغه أثر إصابة قديمة جداً. له علاقات عديدة في الحيّ، ولا يُذكر له أعداء. لا يستطيع إخفاء رأيه في القريبين منه حتى لو كانت "مريم" زوجة أخيه "عباس". وبعد أن تزوج قالت عنه زوجته وابنة خالته المتدينة جداً «فاطمة» التي لا يرى أحد وجهها كثيراً: «أبو محمد حرام يروح النار».

ذات صيف رطب جدا تزوج زكريا ابنة خالته «فاطمة». هادئة في كلّ شيء حتى في السرير على الرغم من محاولات زكريا تسخينها بقصص الحمام كل يوم. في فترة الخطوبة التي دامت أكثر من سنة كانت فاطمة تزوره في بيت أبيه فيأخذها إلى قفص الحمام الكبير في





السطح:

– تعالي نطعم الحمام.

تضحك أمّه التي تسميه «الملاك» بالرغم من سمرته. تقول « المَلك ليس مهما أن يكون أبيض. يكفي بياض قلبه». كان في بال زكريا أن ترى فاطمة كيف يتودّد الحمام إلى بعضه البعض كلّ لحظة. عند باب القفص طلب منها أن تخلع عباءتها السوداء وتعلقها في مسمار قرب الباب فلم تستجب:

– يالهبلة.. الحمام يخاف من العباءة السوداء.. يظنها غرابا كبيرا..

– الغراب إنت.. أنا بيضاء..

–ههههه.. الحمامة البيضاء ضعيفة.. السوداء أقوى.

– طيب.. ابحثْ لك عن امرأة سوداء وتزوجها.. أنا ضعيفة.

– إذا لم ترفعي العباءة الجديدة سوف تتسخ بمخلفات الحمام!

ترددت.. وافقت على مضض بعد أن حلف لها بأنّ أحداً لن يأتي إلى السطح. لا شيء في السطح غير







قفصي حمام زكريا. كانت لا تجيد فعل أيّ شيء من غير العباءة.

علّقتِ العباءة فدخلا القفص. بدأ يصنف لها الحمام وأنواعه وأنها تشبه الحمام «الشمسي» الأبيض المسرول الرجلين بالريش الصغير، (المُكَنْزَع) في أعلى رأسها بريشة كأنهّا تاج ملكة فتبتسم له. يروي لها حكايات عشق الحمام، فيدخلها الخجل. يحضنها من الخلف ويعصر صدرها بيديه فتحاول التخلص منه دون فائدة. ينشط القفص كلّه. يطير الحمام فيه ويهيج فلا تبقى حمامة واحدة تحضن بيضها. يمتلئ القفص بالريش الصغير المتطاير. يدور بعض الذكور في زهو قرب إناثهم يطلبون السفاد. تصرخ فاطمة: الحمام..الحمام. ترجوه تركها فلا يستجيب. يفتح أزرة قميصها. يطبق فمه على صدرها فيدخلها الخدر. تتوقف حركة الطيران وفاطمة لا تفتح عينيها حتى يرتوي. ومنذ ذلك الحين لم تكن تفتح عينيها ساعة يلتقيان في السرير. يغضب زكريا من ذلك فتتعلل له بأنها ترى الحمام كلما بدت الشهوة في وجه زكريا، وتزيد عندما يقترب، وأنّها تشم رائحة





الحمام أيضا، وتسمع ضربات الأجنحة عند أذنيها.

– أنا أعرف .. النسوان حمام، لكنني للتو عرفت أن الحمام يمكن أن يدخل في النسوان.

يقول زكريا ذلك وهو يمسك ضحكته، بينما يعتلي الخوف وجه فاطمة.






كــان السطح كلّه لحمامه قبل أن يقتطع أخوه الأكبر «عبد الله» مساحة يبني فيها شقة صغيرة له ولزوجته ولطفلتيه. بعد مرور عام اقتطع أخوه «عباس» وخطيبته «مريم» جزءاً آخر لشقتهما فدخل زكريا من الضيق الكثير على الرغم من أن السطح يتسع. كان يملك السطح كلّه والخلوة مع حماماته الساعات الطوال. اشتكى لأمه ذلك فطلبت منه الصبر. لم يشتك لأبيه. افتقد زكريا بعض راحته. فقد القدرة على النزول مباشرة على سطح منزلين مجاورين. صار عليه أن يصل إليهما عبر سطحي منزلين آخرين أحدهما لامرأة عجوز كلما نزل على سطحها سمعته فشتمته باسم أمه «الله يلعنك يا ولد صفية كشفت سترنا» فيرد عليها بمقطع من أغنية سعدون جابر «.. يوم الما شوفك ما اريد عيوني.. » ثمّ ينفجر في الضحك.

أوصى زكريا نجار أثاث شقّته أن يجعل سريره دائري الشكل يشبه عشّ الحمام. لم يستغرب النجار الشاب الطلب فلم يأتِ زكريا ورشته يوماً إلا وفي باله مشروع جديد للحمام، ومنه تعلم أشكالا جديدة لأقفاص الحمام





ومحاكرها. اكتفى النجار بالابتسامة ثمّ قال «ويلي على الحمام الباكستاني».

سأل زكريا خطيبته فاطمة عمّا إذا كان في الإمكان استبدال خوص وقشّ عش الحمام بالإسفنج والقطن في السرير حتى يحمي بيضها وبَيَاضها. تأففت وضربته على يده. عزّ عليه أن يغادر غرفته، غرفة العزوبية، التي لم يترك لجدرانها الأربعة نفساً دون صورة حمامة. عزّ عليه المكان فصار يلصق صور الحمام الجديد على الصور القديمة. فلما تمكنتْ بعض الصور منه صار يأتي بالصورة الجديدة، يلصق طرفها العلوي فقط فلا تغيب الصورة العزيزة. لم يمضِ وقت طويل حتى صارت الجدران دفاتر صور حمام يتصفح بعضها كل يوم. يسمع أصوات حركتها كلما زاد من حركة المروحة الكهربائية البائسة فلا تفسد نومه، ولا يمل سماعها. وعندما قرر بناء شقته الجديدة في الدور الثاني دخله همّ كبير: كيف سيغادر هذه الغرفة؟ انتابه شعور بالوحدة وأن المكان بدون حمام يشبه مكاناً بلا بشر. أليس المكان هو البشر؟ المكان عند زكريا هو الحمام.





قلّ كلامه ومرحه ثلاثة أيام وزاد وقت مكوثه في قفصي الحمام. كان ذلك صعباً لولا فكرته الجديدة المتطورة: أن يختار مجموعة صور لحماماته ويؤطرها ثم يعلقها على جدران شقته الجديدة. شعر بارتياح ودخلته الحيرة. ماذا يختار من عشرات الألبومات كلها حمام مروا به، ولديه معها حكايات وسِير؟ بينما كانت زوجته تختار قماش ستائر الشقة كان زكريا يتفق مع صاحب دكان الإطارات لاختيار الإطارات المناسبة لصور عشرين حمامة. تخيّل الصور في أماكنها على الجدران. تذكر حواره مع فاطمة:

– ممكن نضع صورة أبي –الله يرحمه– كبيرة في شقتنا؟

– وهل أبوك حمامة حتى نعلّق صورته؟

– ما عندك شيء غير الحمام.. وأنا؟ «تصرخ».

– اسكتِي.. كان مهرك من الحمام.

يومها غضبت وغادرت غرفته قبل العشاء. ارتمى على فراشه يدير عينيه في صور حمامه يتصفحها بهواء المروحة وأماني عينيه. قال «ولو أن الحمامة الغاضبة





صادفت ذكراً جديداً في منتصف الطريق ما رجعت لحبيبها السابق حتى لو كان عندها بيض... النسوان حمام». لكن فاطمة رجعت في اليوم الثاني صامتةً فصعد بها زكريا إلى قفصي الحمام. مدّت يدها تزيل ريشة بيضاء صغيرة التصقت بعرق رقبته السمراء. طلب منها أن تستدير لتشاهد حمامة تبضّ بمنقارها قرب ذكرها. قال «لاحظيها تبضّ، يعني تطلب الحاجة منه، تتمطّق بشفتيها.. يعني مثل بعض النسوان .. أقصد غير نسوان الحي». مدّ يده على رقبته فلم يجد الريشة. أفاق من خياله كافأ نفسه بنفس عميق.

لم تعد فاطمة تأتي فالطقوس تقضي بمنع لقاء الفتاة خطيبها قبل أسبوع من ليلة الدخلة، وربما أكثر. قيل حتى يزداد شوقهما فيكون بينهما ما لا يكون في سائر الليالي. سخر زكريا من ذلك قال لأمّه:

– لو منعنا الحمامة عن ذكرها أسبوعا نسته ونساها.. ههههه.. «سو يا سو حبيبي حبسوه»..

– أسبوع واحد ليس أكثر حبيبي.. لقد ظللت أنا محبوسة طوال حياتي في بيت أبي، ولولا أبوك ما غادرته.. خير





يا ولدي.. تسلى بحمامك. «قالت له أمه».

– أنا زعلان؟! لا أبداً حتى لو ظلت فاطمة شهراً في بيت أبيها.

– سوّد الله وجهك.

انشغلت فاطمة مع صديقاتها وأخواتها بشؤون الزواج: الحفل النسائي، فستان الزواج، حذاء العروس، ثياب عصر اليوم الأوّل للزواج، قمصان النوم، ووجه فاطمة. قالت لأختها:

– هو يحبّ اللون الأبيض والبني الفاتح، فلو وجدنا قميص نوم فيه اللونان معا كان أفضل.

نظرت إليها أختها باستغراب، فردت فاطمة:

– لاتستغربي فهو يظنني حمامةً أحياناً.

زكريا انشغل أيضا لكن بالحمام، ووجد فرصة جديدة للاختلاء بحمامه وكأنّه أهملها زمناً طويلاً. ولأوّل مرّة في تاريخ الحي كلّه أشترى زوجي « حمام الراهبة». كان عدد زواره من أصدقائه المهتمين بالحمام في ذلك اليوم غير قليل. جاؤوه من كل مكان. ظنّت أمّه أنّهم جاءوا لمساعدته في ترتيب شؤون الشقة للزواج فيما يُعرف





في القرية «بالفزعة» ففرحت كثيراً وصارت تدعو لكلّ واحد يدخل باتجاه الدور الثاني بطول العمر وبالحفظ من كلّ مكروه، حتى قال لها أخوه عباس متبرماً:

– لا يا أمي.. يزورون قفص الحمام الكبير في السطح.. لا أحد منهم دخل الشقّة.

تأففت واسترجعت، لكنها عقّبت بدعاء آخر يحفظ زكريا وأصدقاءه ولا يفرق بينهم.

في قفص الحمام الكبير الذي فاقت مساحته غرفة نوم لشخصين كان زكريا يشير بهدوء إلى زوجي «حمام الراهبة» الواقفين بزهو وفخر على السحارة المخصصة لهما. قال زكريا:

– صلوا على النبي عن الحسد والمرض.. الحمام يمرض بسرعة. عرفت عن «حمام الراهبة» أشياء وأشياء لكن شكله فاجأني. يسمونه «الحمام السوداني» لا أعرف لماذا؟ اشتراه لي صديق من مصر. حمام الراهبة لماذا؟ لاحظوا فيه لونان فقط. أبيض في الجسم كله ولون ثانٍ في مقدمة الرأس ونهاية الجناح والذيل. اللون الثاني أسود أو أصفر أو أحمر، ولم أرَ غير ذلك من الألوان.





ويقولون إنّ وجود لون آخر في غير هذه الأماكن يعني أنّ حمام الراهبة غير أصلية.. نسلها مختلط. حمامة الراهبة تشبه ثياب الراهبة خصوصاً في الرأس وريش الرقبة. هي مثل راهبة أنيقة. عيونها لؤلؤية كلها.. أو بيضاء دائرية أدهشتني.. عندما رأيتها في المرّة الأولى تمنيت لو أجد امرأة في جمالها وحلاوتها سوف أغازلها حتى لو كانت راهبة.

يضحكون ويطيلون المكوث مكتوفي الأيدي في القفص على الرغم من حرارة الجو وارتفاع نسبة الرطوبة. زكريا وضع ثلاث مراوح كهربائية على أرض القفص«مروحة كرسي» كما يسمونها؛ لتلطيف الجو قليلاً. كثرت الأحاديث في القفص سألوه عن بعض أمراض الحمام. يحب زكريا الاستماع لتجارب مربي الحمام، يظهر قدراته ولا يخفي تواضعه وحبّه لمساعدة كل واحد فيهم حتى لو كانت المساعدة بناء قفص جديد. سأله أحدهم عن حمام «الفراشة» الغالي الثمن جدّاً الذي أحضره من مصر أيضاً قبل شهور فأخذهم إلى القفص الصغير.





– الله.. حمامة وفيها فراشة؟ .. بهدوء رجاء، الأنثى تحضن البيض في السحارة لأوّل مرة.. عادة هذا النوع من الحمام لا يحضن بيضه.. فنتحايل على ذلك بوضع بيضها تحت حمامة أخرى تحضن بيضاً لها.. الحمام الفراشة يحب الناس ولا يخاف منهم.. وهذا طبعه منذ أن خلقه الله. أموت في العيون البرتقالية فيها.. لاحظوا الريش في الصدر مثل الوردة.. رأيت بعض صدريات النسوان (حمالة الصدر) فيها وردة صغيرة في الوسط بين النهدين.. من المؤكد أنّهم استعاروها من «حمام الفراشة».. لكنكم إذا رأيتم الوردة في صدرية سوداء تحمل نهدي امرأة بيضاء، أو كانت سمراء نهدها في حجم قبضة اليد؟ لا إله إلا الله.. لا أقوى على غضّ البصر.. النسوان حمام يا جماعة.

يسأله أحدهم عن مصير الحمام بعد زواجه فيطمئنه لا شيء سوف يتغيّر. وأن معزة الحمام ليس فوقها شيء حتى لو كانت المرأة هي فاطمة زوجته.

– الزوجة التي لا تتغيّر يسمونها مخلصة ووفيّة.. الحمامة إذا صارت مع ذكر حمام جديد فترة قصيرة في محكر





تترك الأوّل. فهي متجددة دائما.. النسوان لسن دائما حماماً يا جماعة. لكن يقال هناك زوجات عندهن أطفال ويعشقن أزواج نساء أخريات.. وتصبح العلاقة بينهم أقوى من علاقات الزواج.. تصبح قوية فلا يقوى أحد على تفريقهم.. ويصير بينهم مواعيد، وقبلات وممارسات... لا لا.. النسوان حمام يا جماعة.

– المرأة عندما تعشق غير زوجها تفعل ذلك بعلم.. لكن الحمامة لا تدري. «قال أحدهم».

– وكيف عرفت؟ هل صرت حمامة في يوم من الأيام؟ أم أنك النبي سليمان؟ أم أنك زكريا وأنا لا أدري؟ عندما تحكر الحمامة مع ذكر جديد تألفه بسرعة وتصير بينهما عائلة. النسوان تحكرهن مع أزواجهن فيفطسن ويبحثن عن رجل جديد خارج المحكر. سمعت يا بو المحاكر؟

قال زكريا ذلك وهو يهمّ بإمساك الشاب من رقبته. يضحكون يغادرون سطح بيت زكريا فلا ينسى أحدهم شيئا ممّا قاله لهم، خصوصاً أمثلته وتشبيهاته. في الطريق تحدثوا عن حتمية فوزه في مسابقة «أجمل حمامة» في الشهر المقبل، فلا أحد يملك حمام الفراشة ولا حمام





الراهبة، ولا مثقف حمام يجاريه. وهب الحمام نفسه، وقضى أكثر عمره معه حتى أشيع أنّ أمراض الحمام تُصيبه. وبعد انتشار مرض أنفلونزا الطيور قال «الحمام لا يصيبه هذا المرض، لأن الحمام ليس طيراً.. الحمام نساء».

في عصر اليوم الأخير من عزوبية زكريا أطلق مربو وهواة الحمام في القرية حمامهم الطيّار في وقت واحد متفق عليه بينهم تقديراً لزكريا وهدية منهم في حفل زواجه. شاهد الناس الحمام يملأ سماء القرية فاندهشوا لكثرته. لم يحدث من قبل في تاريخ القرية أن يطلق مربو الحمام والهواة والمختصون فيه، وتجاره، والأساتذة حمامهم دفعة واحدة. لم تنسَ القرية ذلك اليوم. كأنّه عرس الحمام. غارت نسوة في الحيّ من فاطمة، قلن « خل الحمام تنام معها على السرير». لم يرَ أحد وجه زكريا بهذا الشكل من قبل. ولأوّل مرّة سجلوا عليه سقوط دمعة من عينه. زكريا لا يبكي. رأى الناس وجهه مفتوحا على السماء في لحظة تجلّ كأنّ أجنحة الملائكة تتبادل قطع الفضاء مع أجنحة الحمام.





سمعوه يقول « كيف أفهم سماء ليس فيها حمام؟ كيف أسمي البيت بيتا إذا لم يكن فيه حمام؟». بعد ذلك اليوم لم يسمعه أحد من جماعات الحمام يقول كلاما يشبه هذا الكلام ولا حتى قريباً منه. كان الحمام وحده يفتح السماء لزكريا ويفتح معها الكلام.

حرارة الجو وارتفاع نسبة الرطوبة عجَّلتا من طقوس حفلتي ليلة العرس، تجمّع الرجال والنساء. بارك له الرجال عند باب البيت وتمنوا له الذرية الصالحة. قبّل جبين أبيه. حضنته أمه. امتلأ بشيء من الحياء لحظة توجهه إلى شقته. العروس فاطمة التي لم يرها منذ أسبوع تنتظره هناك. أدار ظهره لأهل بيته وتحرك باتجاه الشقة. قالت له أمه:

– زكريا؟.. اذهبْ إلى فاطمة في شقّتها وليس إلى الحمام في السطح. سمعت؟

علت ضحكةٌ من الجميع. تمكّنَ كلامُ أمّه منه فلم يقوَ على الردّ عليه. تابع صعود السلم. فتح الباب فهبّت من شقته رائحة البخور والعود ورائحة المشموم. أخذ نفساً عميقاً وتجاوز باب الشقة. كانت مرايا العرس الطويلة





تنافس صور الحمام على جدران الشقّة. بدت صور الحمام كثيرة بالمرايا. يرى مقلوب الحمام فيها فيفرح ويمتلأ حيوية. تقدّم خطوات فسمع أصوات نساء فظنّ أنها تأتي من صحن البيت. تأكّد له أنّ الصوت من شقته عندما وجد فاطمة في فستان العرس جالسة على طرف السرير الدائري ونساء أربع جلسن على الأرض متغمغمات بالسواد لا يُرى منهن شيئاً. أدرك أنهنّ من أهل فاطمة، وأنّهنّ حرس الليلة الأولى. هزّ رأسه متوعداً وقال:

– إذا لم تخرجوا أخرج لكم حمامتي.

استنكرتِ النسوة كلامه وفعله.. قمن حانقات متسربلات بهمهمة كلمات، يجرين نحو الباب بينما كانت فاطمة تكتم ضحكتها وتهتز فيهتز السرير إكراماً لضحكتها. شرحت فاطمة لأهلها لاحقاً أن زكريا حبس حمامة في قفص جميل في الشقة ليهديها إياها بالمناسبة، وأنّه عناها عندما قال «إذا لم تغادروا الآن أخرج لكم حمامتي» لكن هذا الاستدراك من فاطمة جاء بعد ثلاثة أيام. أي بعد أن سُجّل في خطايا زكريا عند أهلها.



صاروا يقارنون بينه وبين أزواج بناتهم الأخريات. كان زكريا في الدرك الأسفل في سلم المكانة عندهم. صارت حمامته سوءة لا تنسى.

غادرت النسوة حانقات أغلق الباب فأغلقت فاطمة ضحكتها. توقّف اهتزازها. انتظرت اقترابه منها لكنّه لم يفعل. جلس على الأرض على ركبتيه ويديه يقلّد حركة ذكر الحمام بصوت لا يخرم عن صوته. يرفع رأسه ويهوي به، يرفع رجله ثمّ يضرب بها الأرض، يحركها يمشّط بها الأرض مثلما يفعل ذكر الحمام بذيله. عادت فاطمة تهتزّ لكن في خوف، فلا حرس جوارها وما بزكريا على قدر حنينه واغترامه استبدله بتقمّط الحمام بفحولته. قبّلها في فمها مرّات، يضربها في رقبتها بشفتيه كما تفعل حمامة مغترمة، ثمّ عاد يدور على الأرض بزهو يسحب رأسه إلى داخل جسمه حتى تكاد رقبته تختفي فيمدها فجأة في اهتزازات والتفاتات المتمكن من أنثاه. وهي كما هي لم تبرح مكانها و لم تهبط بجسدها كما تفعل أنثى الحمام. أوقفها، أدارها، حضنها من الخلف، احتواها، ملأ يديه بصدرها، صار يضغط عليه ثم يرخي





مرّات. علا صوت نفس فاطمة. أدارت رأسها نحو عينيه. امتلأت شفتاها وتغيّر حجمهما. أغلقت عينيها، فتحت فمها. فلما أطبق عليه زكريا بفمه علت منها أنّة سرتْ من شفتيها حتى قدميها فلم تقو على الوقوف. كادت تسقط لولا صلابة وثبات زكريا. فلما شارف على تعريتها انتبهت. طلبت منه أن يمهلها حتى الفجر احتراماً لأمها ولنذر أمها فيها. قالت فاطمة:

– عندما تُولد الطفلة وفي فرجها دم كأنّه بقايا حيض تنذر أمها لله نذر بأن لا يقترب زوجها منها إلا بعد أذان الفجر، وأن مهمّة النساء الحرس منع الاخلال بهذا النذر؛ لأنّ إخلال الزوج بهذا النذر غير جيد للزوجة.. قبل الفجر تتعرض الزوجة للمسّ من غير زوجها فلا تحمل طوال حياتها.

– لم أفهم. ليس في البيت إلا أخوتي.

– ههه.. لا.. استغفر الله.. من الجنّ.

نظر في وجهها بدهشة. حكّ شعر رأسه، قال:

– الحمام أفضل من البشر؟!



كـان إذا أطال النظر إلى حمامةٍ غلى ثمنُها...

قبل عامين طلب زكرياً من فريق تحكيم مسابقة جمال الحمام إعفاءه من المشاركة في التحكيم. كان يرغب في الدخول منافساً لا محكماً. لم يجد متعة كبيرة في ذلك. فكان إذا جاء يوم التحكيم وهو غير أيام العرض للناس، وصفّت الأقفاص المتشابهة ذات الشباك الواسعة صارت العيون على لفتات ونظرات زكريا. كانت وقفاته تساعد بعض أعضاء لجنة التحكيم في توزيع النقاط على الحمام. في السوق يلاحظه هواة الحمام ويسترقون السمع إلى مفاوضاته مع الباعة. فكان إذا أطال النظر صامتاً إلى حمامة نالت شرف حسّه، وغلى ثمنها. عرف زكريا ذلك فلم يستغله، و لم يتوقف عن بيان رأيه دون مقابل حتى لتجار الحمام. لفت نظره يوم المسابقة فتاة تتسابق بحماماتها فقال لصديق له:

– امرأة وتربي حماماً؟!

اقترب من حماماتها و لم يطل النظر إليها. كانت عيناه على صدرها. فلما تجاوزها قال:

– حمامة «دشتي»...





كان الحمام «الدشتي» أرخص أنواع الحمام لا ميزة فيه غير التكاثر. يملأ الطرقات ويتخذ من كل مخدع في الجدران مكاناً للتفريخ. يُقتل منه الكثير فلا يكترثُ أحد لموته، ولا ليوم تفقيسه. يسمونه في الغرب «فأر الجو».

مرّ شهران على زواجهما. هدأت فورة ذكر حمام فاطمة ولم يعد يداعبها بطقوس الحمام قبل ممارسة الجنس. صار يهجم أكثر ممّا يتسلل إلى صدرها. قيل لها هذا حال الرجال في قريتنا الحب عندهم حرب. بدأت تكره رائحته ونفسه ساعة اللقاء. وفي إحدى صباحات يوم جمعة أخبرته أنّها لم تعد ترغب في مشاهدة صور الحمام المعلقة على جدران شقتها فغضب . قال:

– وهل نعلّق صورة أبيك مكان صور الحمام؟

بكتْ. صمتت. وضعت المشمر على رأسها، وهمّت بالنزول إلى العائلة في صحن الدار. صارت الصور تَتعبها أكثر، وتدخل في نفسها تعاسة منذ الصباح. كانت تقول إن الحمام تضرب الشياطين بأجنحتها. وتقول «الحمام خير لأهل البيت». صارت تحلم أنها عارية في غرفة





في كل جهاتها حمام متزاحم يشبه النحل في تداخله. وأنها مستلقية على سرير من حديد والحمام ينقر بطنها بنقرات حادة مؤلمة. تكرر طلبها لزكريا و لم ترو الحلم له. ما عاد يسمعها. قال لأصحابه:

– عندما يفرغ ذكر الحمام من حمامته يصبح أنشط من ذي قبل. لا يدخله شيءٌ من البرود، حمامته أيضاً. يستطيع العودة إلى حمامته في الحال. ترى الحمامة تُكثر من تقبيل ذكرها بعد السفاد. أحياناً كأنّها للتو تبدأ اللقاء.. شيء عجيب.. الرجل منا يهمد ويخمد وينهار جسده ويفتر كلَّ شيء فيه ويكره نفسه، ويذبل عضوه حتى يُصبح مثل خبز «البخصمة» نضعه يابساً في الشاي ونخرجه ذابلّ يقطر منه الشاي بالحليب. كأنّ خلقة الحمام أفضل من خلقة الإنسان؟

– كنت تقول دائماً: النسوان حمام يا جماعة. "قال صديق له مستنكراً".

– أقصد يشبهن الحمام لكن فيهن شيئاً مختلفاً.. شيئاً مغاير. هذه حمامة وهذه امرأة. فإذا قلت لكم النسوان حمام فهل يعني أن عليكم أن تتزوجوا حماماً؟!



غادر الجلسة قبل موعده اليومي. قبل أن يشرب شايه. قصد البحر كعادته كلما ضاقت نفسه به. زوجته فاطمة روت حلمها لعمتها أم زكريا فحضنتها وبكت فرحة. قالت لها:

– أنت حامل ..

حضنتها. قالت كلمات كثيرة لم تفهمها فاطمة لاختلاطهما ما يشبه البكاء. انتشر الخبر في البيت قبل مجيء زكريا. في الشقة قالت له فاطمة في لين:

– ارفع صور الحمام من الشقة أو ينبتُ في جسم ولدك ريش.

حضنها فبكت. أجلسها في حضنه قال:

– هل نبدأ في جمع الخوص على السرير؟

– هههههه..

– كم بيضة؟

– أوه.. كريه أنت..

– طيب.. كم مدة الحمل 18 يوما؟

– زكريا سوف أنتف ريش جسدك ... وهل أنا حمامة؟



– نعم.. أنت حمامة. أنتِ حمامتي..

– ها .. أي حمامة تعني يا شيطان؟ (لوت أذنه).. الحمامة التي هرّبت بسببها نساء الحرس ليلة الدخلة؟

– ههههههههههه ... لا.. لا .أقسم بصلاة أمي وأبي ليس هذا قصدي.

– أنت لا تصلي ولا تصوم حتى تقسم... قل لي.. اقسمْ لي بالحمام وسوف أصدّقك.

– وحياة حمامتي السوداء.. زين؟

– أوه.. لا تخجل.. ولا تستحي.

حاولت عضّه في رقبته. دخلا في السرير. حذرته من أن يضغط على بطنها من الآن فصاعدا. فلما انتهيا روت له الحلم. اتفقا على إزالة الصور لحين ولادتها فقط. كان يسأل نفسه «لماذا أعرف كلّ شيء عن الحمام ولا أعرف كل شيء عن النسوان؟ أعرف أن الحمامة سوف تبيض أو لا بعد أن ينزل الذكر من عليها، لكنني لا أعرف عن حمل فاطمة إلا الآن؟ وأنا ذكرها؟ يالله .. قفص الحمام لا يشبه قفص النسوان».

كانت فاطمة في شهرها السادس عندما احتفلت



العائلة بخطوبة أخيه «عباس» على فتاة اسمها «مريم»، نسيتْ طُرق تثبيت المشمر على رأسها فيسقط في الدقيقة مرّات. وكلما تحرك من فوق رأسها، أو بان شيء من شعر رأسها، أو كشف عن صدرها أومأ إليها عباس بعينين غاضبتين منذرتين بحساب لاحق. فترفعه متـأففة منتظرة محاضرة عباس الفقهية. مريم لا تكترث لكل ذلك. تنتقي أزياءها، حقيبة يدها، حجابها، مكياجها، حليها الفضية التي تعشق لونها، مواظبة هي على تنظيف وجهها، وتسوية حواجبها في الصالون النسائي مرتين في الشهر. صارت تلفت ولا تلتفت.
قالت لعباس:

– أنا طبيعية فلا تجعلني أتصنّع.

– شعرك يخرج أمام الجميع.. يراه الجميع.. أعتقد أنّ هذا حرام. "قال في حدّة".

– أعرف الحرام جيداً.. لا أحتاج إلى فقيه.

بدأت تبكي. يقترب عباس منها. يضمّها فلا تحرك ساكناً. صار همّه الجديد مراقبة ما تلبس من ثياب، وما تلبس من كلام خصوصا في جلسات العائلة المختلطة.





مريم وحمل فاطمة هما الشيء الجديد في البيت. كلاهما جهة عين زكريا. لا يحوّل عينه عنها، أظهر إعجابه بما تقول. صار يتقرب إليها بمزاح جعلها تكرهه أكثر، وتشكوه إلى أخيه «عباس» الذي يكبره بثلاث سنوات. تحدث مرّة في جلسة عائلية عمّا يشبه الحمام فيه النساء فقالت مريم في هدوء:

– «وليس التقبيل إلاّ للإنسان والحمام».

بدت العبارة وكأنّها تخرج من مريم كلّها. الصمت الذي دخلت فيه بعد العبارة جعل أهل البيت يحفظونها كما يحفظون عن زكريا «النسوان حمام يا جماعة». تغادر مريم الجلسة فلا تغادرها عين زكريا. ترفع المشمر لتصعد السلم إلى شقتها التي لم يكتمل أثاثها بعد. يغلق زكريا عينيه على مؤخرتها التي تهب لجسدها ما لا تهبه مؤخرات نساء أخوته جميعاً لأجسادهن. على السلم يبدو جسد مريم جهات وأقسام منفصلة عن بعضها البعض متصلة مع بعضها البعض. الشقّ في أسفل التنورة يشقّ خاطر زكريا. رأته غير مرّة ينظر إلى صدرها ويبلع ريقه.

ليس لمريم كرش مثل بقية نساء العائلة، خصرها



الأهيف زاد في بروز صدرها ، شفتان غليظتان، عينان واسعتان، لا تخرجان من الخَدر وخال أسود في المسافة بين الصدر والرقبة. شعرها أسود ناعم طويل، سمراء، تقترب من البياض في الجسد غير المكشوف. ناعمة الصوت والكلام ولا تستطيع تغليظه حتى لو تصنعت. مَنْ لا يعرفها يظنّ أنها تخضع له في الكلام مثل حمامة عرفت نيّة ذكرها فهبطت له. سريعة التعرّق فلا تسكن حتى تهدأ مسام جسدها. تقرأ كثيراً. تبكي كثيراً أيضا. تسرح أكثر، أحلام يقظتها لا تنقطع مثل الشكوى والتذمر من كلّ ما لا يكون تحت يدها.

تعود مريم إلي بيت أبيها قبل العاشرة ليلاً. هذه رغبة أبيها التي لم تلبها له كثيراً. وقد تبيت في شقة خطيبها حتى الصباح عندما تكون هناك مواجهات ومناوشات بين شرطة الشغب وشباب القرية المؤيدين للثورة الإسلامية في إيران. لا إضاءة في ليل القرية غير الإطارات المحروقة. تمّ تعطيل مصابيح الشوارع. رائحة مسيل الدموع صارت مسلية للناس. أصوات ملاحقات ليلية، وأحذية ثقيلة. وفي الصباح يرى الناس



أثار الليل، يعرفون أسماء المعتقلين، وأخبار الجرحى، ولا شيء مكتوب في الصحافة لكن جدران القرية ممتلئة بالكتابة، بشعارات سياسية ودينية تؤيد الإمام الخميني والثورة. عادة لا تُبقي الشرطة الكتابات على الجدران حتى السابعة صباحاً. مصبغة كهربائية في سيارة يديرها رجلان تحرسهما سيارة شرطة. ساعة واحدة ولا يبقى شيء من تلك الكتابات. تختفي صحف الليل.

ليس في عائلة الحاج سلمان ما يخاف منه عليهم. فهذه العائلة لا علاقة لها بالسياسة ولا بالثورة، ولا بالأنشطة الدينية. لكن الأمور لم تكن تسير بهذه الأمنيات. فقد داهمت شرطة الشغب البيت في الفجر، صادرت ألبومات صور زكريا، فتّشت قفصي حمامه، واعتقلته. تغيّر طعم البيت كله. بكت أمّه كثيراً، حضنتها مريم فظنوا أنّها ستبكي هذه المرّة، لكن ذلك لم يحدث. لم ير أحدٌ فاطمة تبكي:

– لم تدخل الشرطة هذا البيت قطّ؟ قالت أمّه وهي تبكي.

خرج أبوه وأخوه الأكبر «عبد الله» يسألان عنه في





مركز شرطة القرية فلم يجدا له أثراً. بحثا عنه في مراكز الشرطة في القرى والمناطق المجاورة دون جدوى. لا أحد ينفي اعتقاله ولا عدم وجوده. لا بيانات عن معتقل إلا مهربة عن قريب، أو شخص له مصلحة، أو معتقل أُطلق سراحه. يُضاف جنون السؤال إلى جنون الاختفاء. يصبح المعتقل لا معنى له.

شاع بين الناس أنّ معتقلاً اعترف أنّه ينقل المنشورات عبر الحمام، وأنّ اسم «زكريا» جاء في التحقيق معه. سخر معلّم من القرية أنّه لا معنى لذلك في وجود الفاكس:

– لو قالوا الحمام للتجسس مثل طائرة من غير طيار لصدقنا. «قال المعلّم».

قِيل أنّ المحقق وجد زكريا في صورة فوتوغرافية جوار معتقل متورط في صنع قنابل حارقة «مولوتوف» فاعتقلوه. وقيل إنّ المحقق أشار على شخص آخر لكنّ الشرطة أحضرت زكريا. وقِيل لكثرة وجوده على السطح وأنّ المراقبين في الطائرة الطوافة «الهوليكبتر» شاهدوه يعطي إشارات ويلّوح بيده فاعتقلوه. وقِيل هو سياسي مهم جداً له مرتبة كبيرة في الجبهة الإسلامية،





لكنه يتخفى بالحمام.

بعد يومين تذكرت فاطمة حمام زكريا، لم تفزع كثيراً فهي تعرف أنّ زكريا يضع من الحبوب ما يكفي لأكثر من خمسة أيام. لكن كيف ستصعد للحمام بدونه؟ لم يحدث ذلك من قبل. على السطح وجدت باب القفص الكبير نصف مفتوح فخافت. كان الوقت عصراً. دخلت القفص سمعت صوت زكريا يطلب منها ترك العباءة خارج القفص. نظرت إلى الحمام فرأت صورته في عيونها. كلها تشبه زكريا، كلّها لا تتكرر أيضا. شعرت به يطوّقها من الخلف، يملأ يديه من صدرها، فيضطرب الحمام. شمّت رائحته. دارت إلى الخلف في سرعة علّها تجده. زادت سرعة نفسها. لا أحد. نظرت في جهات القفص تبحث عنه. رأت ثلاث حمامات نشطات في زاوية القفص فصارت تنتظر خروج زكريا من تلك الزاوية. هدأت الحمامات الثلاث. هدأ القفص كلّه. لم يخرج زكريا.

عادت تدير عينيها بهدوء في القفص كلّه كمن يترقب حبيباً طال غيابه فقيل إنّه سيخرج من جهة غير معروفة.





كررت فاطمة فحص الجهات، شاهدت حمامة تقوم من فوق بيضها تنفش ريشها، فيجلس الذكر مكانها. عاد زكريا يطوقها من الخلف. تشمّ رائحته. تبتسم دون أن تفتح عينيها. تضغط الشفة بالشفة. تعضّ السفلى قليلا. تذكرت قول زكريا «الحمام يرى الذي لا يراه الناس»، وأنّها لم تفهمه. الآن للتوّ بدأت تفهمه. رأت فاطمة حكمة الحمام. ظلّت مبتسمة مغمضة العينين. سالت دمعة. تعرّق جسدها كله. التصقتْ ريشاتٌ صغيراتٌ في جبينها ووجهها. لم يقلْ لها زكريا «أحبك» ولن يقول. هي أيضا لم تفعل ذلك. سمعته الآن يقول لها «أموت فيك فاطمة». ضغطت على شفتيها أكثر. وضعت يدها على صدرها تحاول رفع يديه. تجرأت حمامة فطارت تقطع القفص طولاً. ففزعت فاطمة. صرخت فاضطرب القفص كلّه. وضعت يدها على بطنها. انتحبت، تمنّت أنّ أحداً لم يرها.

ظلّ الحمام بلا ماء في القفصين. وفي اليوم التالي التمست فاطمة من مريم أن تطعم الحمام وتسقيه:

– حاضر .. من عيوني...





شقّتان

وقفصان ، هذا هو السطح. مريم تتعهد حمام زكريا كلّ يوم فليس بينها وبين القفصين سوى خطوات. تشغل شقّتها الجهة الجنوبية من السطح. هي قسمان: الأول، غرفة نوم كبيرة، صالة صغيرة وحمَّام. الثاني: المطبخ، وهو صغير أيضاً. القسمان منفصلان تتنقل مريم بينهما بمشمرها الملون الخفيف الشفيف، ولا شيء غيره. شقة «عبد الله» تأخذ الجزء الأكبر من السطح. كانت مريم تنعت شقتها الصغيرة بالقفص الثالث، لكنها تستدرك بعبارة «قفص من غير حمام». تنفجر في الضحك فتعطي نقدها صفة الكلام المضحك اللطيف.

في المساء من كلّ يوم تسرد مريم أخبار الحمام في القفصين لفاطمة التي تنصت بعناية في الدقائق الأولى فقط من السرد. تتأفف كلما أوغلت مريم في بيان التفاصيل الصغيرة جداً جداً عن الحمام. ويوم غضب منها زوجها لأنّها تلاحظ التفاصيل الصغيرة في بيت العائلة قالت له:

– أنا امرأة التفاصيل.



صار لدى مريم سيرة لكلّ زوجي حمام في القفصين، لا تميز الأزواج باللون ولا بالنوع. كانت تعطي لكل زوجين لافتين اسم تشتقه من صفات تلاحظها وتجمعها في ذاكرتها عنهما. وقد تهب الاسم لحمامة واحدة. زوجها عباس يعدّ ذلك «هراء»، ومضيعة وقت، وشغل بال. في القفص الكبير يوجد «عيون الشك»، « حوّام»، وغيرهما من الأسماء. وفي القفص الصغير أسماء أخرى، وربما اشتقت الاسم من الاسم الشائع للحمام مثل «الراهبة» في القفص الكبير، و « الفراشة» في القفص الصغير. سألتها فاطمة عن الحمامة « عيون الشك»، وليس فيها رغبة للاستماع.

– «عيون الشكّ» حمامة ذكر ولد كلب. شكّاك من الدرجة الأولى في حمامته. فما إن يقترب ذكر من حمامته حتى يضربه بمنقاره بقوة، أو يصفقه بجناحه يسقطه أرضاً. لم يكن يحميها.. أنا أعرفه.. كان يشكّ فيها فهي لا تمنع ذكور الحمام تقبيلها وذكرها في السحارة يحضن بيضها.. هذا طبيعي في الحمام. هذا الطير بالذات يشبه الإنسان. هذه الحمامة تشبه المرأة





التي لا تكتفي برجل واحد، ولا تستطيع فعل ذلك حتى لو كان الرجل يعبدها. تتنقل بين ذكور الحمام ونراها تضرب رقابهم بمنقارها. الضرب عند الحمام تقبيل. تعود لذكرها محبطة إن لم تصادف ما يبادلها التقبيل. وفي اليوم الثاني تعيد الكرة، و...

– ليست عفيفة؟.. "تقاطع مريم. تسوي جلستها وتتوجع."

– هههههه.. ممكن.. ربما في اليوم ذاته، عندما يغفل ذكرها، أو يُطيل الجلوس على البيض. وقد تترك ذكرها إلى الأبد وتترك بيضها أيضاً إذا صادفت ذكراً آخر يفتنها. أحياناً الحمامة يصير خاطرها في ذكر آخر فتترك ذكرها، وتطير دون علمه إلى سطح آخر، وما أن تلاقي ذكراً حتى تقترب منه جداً وتقبله، وتمكنه من نفسها. تعود إلى ذكرها الأول منتشية وبعد ساعة أو أقل تطير لذلك الذكر، تفعل هذا كلّ يوم مرات فإذا لم تجده طارت تبحث عن ذكر آخر.. تستمتع إلى آخر ريشة فيها.

– كان زكريا دائماً يقول «النسوان حمام يا جماعة»





الآن فهمت قصده. قالت فاطمة.

– الرجال حمام أيضاً يا فاطمة. الحمام مفطور على شبهه بالإنسان.

تلتقي مريم بفاطمة في شقتها في الدور الثاني كلّ يوم بعد انتهائها من قفصي الحمام. تنقل لها أخبار الحمام وبعض ملحوظاتها. لكنها لم تخبر فاطمة مرّة بطقوسها اليومية في القفص الكبير عندما يغيب خطيبها عباس. تدخل القفص بمشمرها الذي سرعان ما يسقط عن شعرها الأسود فتشده على كتفيها كي لا يسقط على الأرض. تظلّ أطراف مشمرها تسحب على أرض القفص فلا تكترث. تتفقد سحارات الحمام ولا تخشى ثورة بعض الحمامات الحاضنات لبيضها أو فراخها. تُبقي دائما مسافة بين وجهها والحمامة. وعندما يحين وقت مغادرتها القفصين تعطي الحمام طعام يوم واحد فقط.

في القفص الكبير تملأ مريم يدها اليمنى من شعير الحمام، والثانية من الحبوب المخلوطة. تمدهما مفتوحتين وتقلّد صوت دعوة الحمام للأكل « بي بي.. بي.. بي»





فتهبط الحمامات على يديها. تهتزان. تبتسم لها. لا تتسع الذراعان لكل الحمام فيهبط بعضه على كتفيها ورأسها، وأخريات يأكلن ما يسقط من الحبوب. وقد تضع بعض الشعير بين شفتيها فيلتقطه الحمام الجريء فيصدر من مريم صوت قبلة. إلاّ حمامة «حوّام» ذات اللون البني المحمر والأبيض ما كانت تهبط للأكل إلا عندما تغادر مريم القفص. لاحظت مريم ذلك فحاولت فهمها. لم تستعجل الأمر فثمّة شيء في نفس « حوّام». تنظر مريم في عيني الحمامة مباشرة فلا تحتمل الأخيرة ذلك. يهتز رأسها، تتنقل فوق السحارات المتجاورات منها ثمّ تعود إلى مكانها. تقترب منها مريم فيزيد اضطرابها وربما طارت بعيدا. لم تيأس من محاولاتها حتى صارت تكلمها على نية أنّها تفهم كلام مريم « اهبطي نلتذّ معاً حمامة لحمامة» تهدأ الحمامة ويقلّ اضطرابها. لكنّها لا تهبط. فلما تمكّنتْ مريم منها كانت أوّل الحمامات نقراً وتقبيلاً لرقبتها المكشوفة حتى ترك التقبيل أثر دوائر سوداء محمرّة صغيرة جدا.

كانت «حوّام» لا تهبط حتى يشبع الحمام ويغادر



مريم. وفي يوم فتحت مريم اثنين من أزرة قميصها، فأشرق نهدان صغيران وبانت وردة صغيرة في وسط الصدرية. وضعت الشعير في المسافة بينهما فلما فاضت راحت «حوّام» تلتقط الشعير في عجل. كلما قلّ الشعير اختفى جزء من رأس الحمامة. ينتهي الشعير. يختفي الرأس كله فتعيد مريم ملء المسافة. قالت تخاطب الحمامة في همس:

– "المسافة جوع.. المسافة رغبة.. المسافة عشق.. المسافة، المسافة أيضاً أنتِ."

صار عباس يسألها عن الدوائر السوداء المحمرّة في رقبتها وفي المسافة بين نهديها فتقول «حساسية قديمة من الجو الحار».



اليوم الوحيد الذي بكت فيه فاطمة يوم أنجبت طفلتها الأولى، عدا ذلك لم ير أحدٌ في البيت لها دمعة. لم تطلب الذهاب إلى بيت أبيها كما تفعل النسوة بعد الولادة الأولى في القرية، انشغلت مريم عنها قليلاً في التجهيز لزواجها. صار عباس يعتني بقفصي الحمام. يفتح باب القفص. يدخل رجله اليمنى فيه. يرمي الشعير ويغادر. تسأله مريم عندما يزورها في بيت أبيها عن الحمام فيقول «بخير... يأكلون الشعير ويشربون الماء». سألته مرة عن «حوّام» فقال «هراء..لا حوّام ولا صدام».

بعد يومين من الولادة جاء شرطي إلى بيت زكريا يحمل سلاماً منه، واسم « فاتن» لطفلته، ويوصي خيراً بحمامه. بكت فاطمة وأدركت مريم نية زكريا. أحيانا تسرح فاطمة فيراها البعض تبتسم هكذا وحدها. يسألونها فلا تعلل، وتكتفي بقولها « لا شيء». سألتها مرّة مريم فقالت:

– كان زكريا ينوي وضع خوص وخيوط على السرير مثل عشّ الحمام.



– لم يحدث في التاريخ الطبيعي للحمام، أن تساعد حمامة أنثى حمامة أخرى في جمع الخوص للبيض، لكننا سنغيّر تاريخ الحمام كله!.. يمكنني أن أساعدك!.. أنا رأيت حمامة ذكر يدخل سحارتين، في كلّ واحدة حمامة أنثى له تجلس على البيض. والله عجيب.

– رجل تزوّج امرأتين؟

–ههه.. بالضبط.. أعجبني ذكر الحمام. كان عادلاً بين السحارتين.

صارت مريم تغيب أكثر عن بيت خطيبها عباس. أتعبها الاستعداد للزواج وليس ثمّة صديقة تساعدها غير أختها التي تصغرها بثلاث سنوات. وعندما تأتي يسألنها عن كلّ شيء، وعن ما تحمله ، وما في داخل الأكياس. دخلت شقتها فغفت عينها. تفاجأت بدخول أخوات عباس وزوجات إخوانه عدا فاطمة. وثلاث من بنات عمه وعماته يدخلن الشقّة عليها يضحكن. وقبل أن تستوي واقفة فتحت إحداهن خزانة ملابس مريم فتجمعن ينظرن إلى فستان الزواج. استاءت من ذلك. كيف يدخلن بلا استئذان؟ ليست هذه المرّة الأولى.





أبدت تبرمها من سلوكهن فشكونها إلى عمتها. قال عباس:

– الموضوع طبيعي.. هم هكذا.

– لا .. الموضوع سخيف.. أنا لا أحب هذا السلوك.. هناك استئذان..

– أنت امرأة تثير الخلافات.

– من اليوم سوف يُقفل الباب عندما نكون في الداخل... لا دخول من دون استئذان. قلت لك من قبل لا نريد أن نسكن في هذا البيت.. قلت لك مرّات و لم تهتم بالأمر.

منذ ذلك اليوم صار باب شقة مريم وحده الذي يُغلق ويُقفل في البيت كلّه. كان ذلك غريباً على تاريخ العائلة. نعتوها بالمتكبرة. وعندما تزوجت أضافوا إليها نعت «المغرورة»، و«بنتِ السوق» لكثرة وتنوّع ما تلبس واختلافه عنهن. و لم يمض شهر على زواجها حتى نعتها زوجها عباس بـ «الحسّاسة».

ما كانت عمتها أم عبد الله تزور شقق أولادها إلا نادراً؛ لتقدمها في العمر وكثرة مشاغل البيت. ويوم






صعدت تزور شقة المعرس والعروس لأوّل مرة وجدت الباب مقفلاً. بدأ فصلٌ جديد من محنة مريم. سمع البيت صوت الأم غاضبة:

– ألا تستحون؟ الباب مقفل في وجهي؟ لا تحبون زيارتي؟ هذا جزاء الإحسان؟

حاول عباس تهدئة أمّه فلم ينجح. قرر سحب المفاتيح من مريم فثارت:

– هل يفرحك أن يدخلوا الشقة ونحن عراة على السرير؟ لماذا تبقى أبواب الشقق كلها مفتوحة؟ لماذا يُفرح ذلك عمتي؟ اسمع عباس.. هل ترى عمتي أبواب الشقق أرحام نساء غبيات لا يُسمح بإغلاقها. تنفتح الأبواب المتقابلة عن أطفال من خلفهم أطفال من خلفهم أطفال من خلفهم أسرار؟

– عيب مريم.. أمّي لا تحب الأبواب المغلقة. باب حجرتها مفتوح منذ أن تزوجت أبي، وباب بيتنا لم يقفل حتى أيام حوادث الشغب في القرية.. الباب المغلق يجلب الهمّ ويقلل البركة.

– هذا غلط كبير.. واحد يضاجع زوجته والباب





مفتوح؟!.. البركة هنا فيما تكاثرت عليه الغرف والشقق وتداخلت فيه روائح النساء بالرجال. البركة فيما تكاثرت فيه الفحول. فيما تكاثرت به النساء. فيما تكاثرت له فرحة عمتي . العائلة تنمو مثل مفرخة دجاج. كلّ شقة تتشقق عن أصوات أطفال ليل نهار تُبهج عمتي. كلّ شقّة قفص لكنّه لا يشبه قفص حمام زكريا المغلق دائما. قفص حمام مقفل... شقة لبني آدم ولا تقفل؟!..

سحبها من جيبها فكادت تسقط. هددها بالضرب إن هي أهانت أمّه أو عادات وتقاليد وأعراف العائلة مرّة أخرى. بكتْ وهي تتحدث فلم يفهم ما تقول. قَلَّ نزولها إلى صحن الدار، وصعود نسوة البيت إلى شقتها. بدأت تشكو حالها إلى فاطمة فتتلو عليها نصوص الصبر، وحكاياتها مع الأبواب في العائلة. نصحتها بأن تقبل كلّ شيء في العائلة خيراً من أن تغضب زوجها منها. الزوج أولاً. حاولت بيان رأيها في قفل الأبواب لنساء العائلة فكنّ يقتنعن برأيها عندما يكنّ متفرقات، وما إن يجتمعن حتى يضعفن رأيها ويَنَلْنَ منها. ولأنّها





المرأة الوحيدة التي تدرس في الجامعة في العائلة زاد من نَيلِهن منها. خصوصا تبخترها بحمل كتبها ساعة عودتها عصرا من الجامعة، وتأنقها في دفاترها، ولباسها. أضافوا لها نعت «أم عيون سكسية»، « أم عيون البقر »، «العصبية»، و«hi» لكثرة استخدامها في التحية.

عندما تجتمع العائلة في صحن الدار لا يكون هناك حدود للكلام. كانوا يجلسون على مرتبات من القطن مفروشة على سجاد سميك. تتربع النساء في جلستهن بينما يمدّ الرجال أرجلهم ويتكئون على مساند من قطن عليها أغطية بيضاء فيها زخارف وزهور حمراء ووردية مصنوعة بأيدي نساء القرية. يملأ الأطفال المكان بالضجيج ولا يستقرون في مكان. يتنقلون بين صحن الدار والشقق المفتوحة الأبواب. كأنّ البيت كلّه صحن. تفرح جدّة الأطفال لذلك. كلّ شيء مفتوح في البيت حتى الكلام له فسحة لم ترها مريم في قريتها القريبة من المنامة. يطلب أحد أخوة عباس السكوت لأنّه سوف يقول سرّاً لا يعرفه أحد. ينصتون ويترقبون، فيخبرهم عن شيء كانت أخته جعلته سرّاً لا تعرفه إلا





النساء. يضحكون فتنال منه في زوجته الجالسة. يضجّ المكان بالضحك.. مريم لا تضحك كثيراً، لا تشارك في مباريات التعليقات التي تكشف أموراً كثيرة للرجال أكثر من النساء.

– مريم تستحي.. ربّما.

قالت إحدى أخوات عباس تستفزّ مريم، فالتفتتْ إليها بهدوء فصخّتِ الجلسة. جاءت الأم تشاركهم الكلام. فلما استقرت قالت مريم:

– يُقال إنّ ختان النساء في هذه القرية أكثر من غيرها؟ صحيح؟

بلعت النسوة ريقهن وتبادلن النظرات ولم يضحك أحد. قالت الأم:

– كانوا يفعلونه في السابق .. الآن لا. الحمد لله.

– هل تقوم به الداية؟ هل يعلم الآباء بما يُفعل في بناتهن؟

قالت مريم ذلك وفي عينيها أسئلة كثيرة.

– كان عمري ثمان سنوات. البيوت من سعف النخيل لا تحجب الأسرار. قالوا لنا: غداً نزور «عين عذاري». أنا سمعت عن عين «عذاري» كثيرا لكنني لم أرها قطّ.





قالوا لنا: لابد أن نتجمّع كلنا صباحاً بعد الإفطار في «بَرَسْتَج» جدتي المصنوع من سعف النخيل، وسوف يأتي باص كبير يأخذنا إلى «عين عذاري». كانت فرحتي كبيرة جداً فهذا خروجي الأول خارج الحي. كنت أوّل الحاضرات لأنّ "برستج" جدتي في بيتنا. بعد ساعة تقريباً اكتمل العدد. كنا تسع بنات . أعمارنا بين الثامنة والعاشرة ولا أكبر من ذلك.. جميعهن صديقاتي تقريباً يسترن شعر رؤوسهن "بالمشامر" الملونة، فلا يوجد حينها شيء اسمه حجاب. صرنا نتحدث عن «عين عذاري» وعن ماء عذاري وسمك عذاري والنخيل حولها، والناس: كيف يعيشون قرب ماء لا يتوقف ليل نهار؟ كيف تغتسل النساء في جداول عين عذاري؟. كان في يد كل واحدة منا كيس فيه ثياب: سروال وفستان نلبسهما بعد السباحة. هكذا قالوا لنا. كنا نضحك ونتحدث كلنا في الوقت نفسه. كان "البرستج" يضجّ بأصواتنا وضحكاتنا وما سنفعله عندما ننزل الماء حتى تجمّع بعض الصبية خارج "البرستج؛ يسألون عن المناسبة فنقول لهم بدهشة:





رايحين «عين عذاري»، الآن يأتي الباص. سألونا : ممكن نأتي معكن؟ فنردّ: لا.. لا نريد الصبيان، عيب أن نسبح أمامكم في الماء. جاءت جدتي ومعها ثلاث نساء من الحي لا يتسمن لأحد. فلما وصلن "البرستج" دخلنا جميعا ونحن نضحك فرحات. فلما دخلن أُغلق الباب. جلسن على الأرض يتحدثن بكلمات لا نفهمها، نادت جدتي على واحدة منا كانت صديقتي المقرّبة فلما وصلت أجلسنها على الأرض في حضن واحدة منهن. حضنتها من الخلف بقوة مكتوفة اليدين مشلولة الحركة. ماذا تفعل المرأة منا من غير يدين؟ لا شيء غير التوسل والصراخ. تدافعنا في زواية "البرستج" حتى تكاد الواحدة منا تهضم الأخرى. قامت صديقتي تمشي ثمّ سقطت ثم قامت ما انقطع صياحها. لا أحد يجرؤ منا على مساعدتها. فتحت لها جدتي الباب فخرجت تبكي. تكرر المشهد مرّات. فرّت واحدة منا قالت النسوة: لن تذهب بعيداً. فلما جاء دوري لذت بجدتي. استعطفتها لكن لا فائدة. تسحبني وأنا أبعد نصفي الآخر عنها، تمنيت لو أنّه لا يأتي. كان الوقت





يمضي والألم يزيد ولا يقل منه شيئاً. وعندما نخرج يتلقانا الصبية ساخرين « عين عذاري ها؟ عسى الماء بارداً»؟

قالت الأم ذلك و لم يزد عليها أحد. ظلوا صامتين ممتلئين بالخوف والكلام حتى انفضّ الحضور. الجلسة الكبيرة تعقبها جلسات صغيرة خاصة جداً تنقل فيها النساء إلى الرجال ما لا يُقال في الجلسة الكبيرة. الكشف فيها أكبر سعة و أكثر دقّة. كانت تقول لعباس بعد كل جلسة أنّ ثمّة شيء يخفي شيئاً آخر، مثل إعلان سرّ صغير لإخفاء سرٍ كبير. وأنّ هذه العائلة منفتحة جداً لتكون منغلقة جداً، وأن الجميع منخدعون بأنّ ما يقال من أسرار هو كلّ شيء في هذه العائلة:

– ألا تلاحظ أنّ أخاك ارتاح كثيراً وهدأ عندما انتهى من فضح أختك؟ كان مضطرباً قبل الكلام. كأنّه أخفى شيئا مهماً للغاية.. ربما لا نعرف تفاصيل المخفي لكن نستطيع أن نعرف أنّ هناك مخفيّاً وراء الكشف.

– تأكدي أنّه لو كانت هناك أسرار سوف أعرفها. "قال عباس بصيغة الواثق"

– «سوف تعرفها»؟ إذن كيف تكون أسراراً؟

– الأسرار هناك .. في بيت أبيك «يشير بأصبعه بتشنج».

– الله يسامحك.. دائماً تنال من ملحوظاتي.

تنتهي فينعتها بـ«مُنظّرة النسوان». كانت مريم أكثر النساء نعوتاً في هذه العائلة. كانت «غير» كما ينعتها الطيّب «جاسم» صديق زوجها. وهي «الزقرتية» كما ينعتها زكريا الذي تفنن في نحت النعوت لها حتى فاق الجميع. صارت لها نعوت دائمة وأخرى عابرة. نعوت تنال منها وأخرى تمدح ما ليس في نساء العائلة. هنا .. على قدر الحركة يكون النعت.



رآها كثيرون تكلّم نفَسها، سمعوا همهمتها، تضع يدها على جبينها « أنا حارسة الحمام وعمتي حارسة أبواب الشهوة. لا أحد يفهمني هنا.. لا هذا الغشيم ولا أهل بيته، أهل السرّ.. أف.. الله يعين» يسألونها عمّا تفعل، يتهامسون «استجنّت مريم». تلتفت تقول لهم « أنا أسبّح الله في سرّي» ثمّ تنفجر في الضحك. يعرفون أنّها تسخر فلا يستطيعون النيل منها في الحال.



يُغنّي يبالغ في ترجيع صوته بالغناء.. هذه علامة «جاسم» الصديق الحميم لعباس وللعائلة كلّما دخل عليهم البيت. وهي أيضا «نحنحة» الاستئذان بالدخول إلى البيت. ولا شيء غير ذلك ليكون وسط البيت أو جوار أبواب الشقق. لا حجاب بينه وبين نساء البيت سوى مشمر يغطى شعر الرأس و يتهدل على أكثر الجسد. مشمر وثقة الصداقة. الأصدقاء هنا لا يأتون فجأة. الأصدقاء يدخلون البيوت أطفالاً ويكبرون فيه، فتكبر معهم المودّة، وتتسع العلاقة. في هذه القرية العائلة تعرف عن أصدقاء أولادهم كلّ شيء إلا ما يخصّ الصداقة خارج البيت. يصبح الصديق اِبناً للعائلة، وابنا لوالدي الصديق. أمّا زوجات الأصدقاء فتصبح الواحدة منهن «زوجة أخي» تماماً كما ينادي جاسم «مريم».

في جاسم جرأة الباب المفتوح. يلمح حتى رائحة العطر في مريم فيخبرها باسمه. لديه القدرة على التمييز بين بقعة الطعام وبقعة العطر في ثياب عباس دون أن يضع أنفه عليها.



– قلت لك أكثر من مرّة لا تضع العطر على ثيابك عن قرب.. قلت لك ضع قليلاً منه هنا.. انظرْ .. هنا من بعيد.

يضع أصبعه على رقبة عباس فتبتسم مريم. تؤكد له أنّها أرشدته لمواضع العطر عدّة مرات لكنّه كثير النسيان، ولا يكترث... لا يتقن استخداماتها، وحتى لو عرف يهمل فيعود إلى ما كان عليه. يثني جاسم على ما تقول ويوجّه عتاباً شديداً لصديقه عباس. يحوّل عينيه إلى مريم يمتدح ثيابها كعادته:

– والله إنت ملكة جمال الهند.

تبتسم وتشكره على النعت الجديد. يلتفت إلى عباس يقول له:

– أين أجد امرأة مثل زوجة أخي هذه.. أتزوجها والله..؟

عندما ينشغل عباس، يطلب من صديقه جاسم إحضار مريم من الجامعة عصراً، أو يحضرها من بيت أبيها فلا يرفض طلبه. تتفاجأ بسيارة جاسم فلا تغضب. تجلس في المقعد الأمامي. يصبح طريق العودة إلى البيت





درباً من الكلام اللذيذ. وفي كلّ مرّة يقدّم جاسم جرعة من النعوت لها، وينال من نساء القرية. وهي كعادتها تسرد له بصوتها الخفيض سِير النساء مع الأزياء في القرية، واتساع المسافة بينها وبينهن، وصعوبة اندماجها معهن. في الطريق لا يرد اسم عباس إلا مذنباً ولا شيء غير ذلك. يقلل جاسم من ذنب صديقه ويدعو مريم للتفاؤل، فتثور عليه، ويذهب بهاء الصوت:

– أي تفاؤل مع رجل لا يعرف أين يضع العطر؟.. أخبرته مرّةً أن اسم عطر عندي «تشينل 5».. فراح، وبعد فترة قال لي «عطرك اليوم نشل 6 ؟ «..هههههه.. تصور يخلط بين اسم ثوب النشل وعطر تشنيل؟ الأول بحريني والثاني فرنسي.. حتى الرقم صار 6 ؟



– هههههه ... بصراحة أنا بعد أتخربط بين «تشنل5» و «شنل6»!.. لكن كيف هي رائحة الثاني زوجة أخي؟

– جاسم؟

– نعم؟

– اقلب وجهك؟..

– أي صفحة؟





– ههههه . تعرف عباس لن يتغيّر... عباس هو عباس، من الصعب أن أتفاءل من أجله كثيراً.. قبل يومين قرأت في رواية ماكبث لشكسبير.. لحظة أنا كتبت العبارة في دفتر المحاضرات.. يقول « لا يمكن لكلّ عطور الجزيرة العربية، أن تجمّل هذه اليد الصغيرة».. فذكرت عباس.. تصوَّر؟

– حرام عليك.. لا تظلميه..

تمرّ السيارة في الشارع الرئيس للقرية فيتخفف حديثهما.. يمدّ يده يرفع صوت الغناء. عباس لا يفعل ذلك. لا يكون معه غير الصمت وربما ملحوظات منه حول حركتها في البيت، وبعض مشاكل العائلة. لا يحضر غيرُ البيت والعائلة.

في الساعة الثالثة صباحاً، وبعد يومين من سفر عباس وأصدقائه رنّ هاتف الشقّة:

– ألو..

– ألو.. أحبّك زوجة أخي

– الله يهديك يا جاسم. هل هذا وقت اتصال؟

– أنا أحبّك زوجة أخي.. أنا أحبك





كان لسان جاسم ثقيلاً.. كان سكران. ليست المرّة الأولى التي يفرط فيها في الشرب. الشاب المحبوب في العائلة غير مقرّب للأب بسبب الخمر. كان أبو عبد الله لا يردّ عليه السلام، ولا يجلس جواره. دعاه مرات للتوقف عن شرب «المخزي» فلم يستجب. كان يقول « جاسم هو الذي علّم ولدي عارف على شرب المخزي». كان «عارف» من زوجته الثانية من القرية المجاورة.

أغلق جاسم الهاتف بعد أن رجته مريم ألاّ يفعل ذلك. لكنّها سرعان ما تفاجأت بوقوفه عند باب غرفة نومها. دخلها خوف كثير. كيف مرّ إلى شقتها ثم إلى غرفة النوم؟ على مَنْ مرّ؟ مَنْ شاهده، ومَنْ رآه وظلّ ينتظر الحدث؟ .. فرّت من سريرها ساحبة الملاءة تغطي ما يمكن من جسدها شبه العاري. الصدر أولاً. في كلّ شيء هناك "أولاً". جمعت الملاءة وكوّمت أكثرها عند صدرها. احتمتْ بزاوية الغرفة القريبة من السرير.

– أرجوك....

قالتها بصوت مكتوم. كلما اقترب منها لاذت بالزاوية أكثر. قد يذرع ذكر الحمام أرض القفص مشياً وقفزاً





يلاحق حمامةً، يحشرها في زوايا القفص مرّات. تهمّ في مشيتها ويهمّ. ينقرها في عنقها. يحاصرها مرّات فتفرّ. يقضيان وقتاً طويلاً فلا ينال منها حتى يشعر منها القبول، ويراها تهبط. كلما كوّمت المَلاءة على صدرها صار لا ينظر إلا جهته. استفزّه الغطاء، واستعطافها عاد لا يجدي. سحب الملاءة بقوة فَعَلَتْ منها صيحةٌ وبدت الرعشة في شفتيها واضحة. امتلأت العينان بالدموع. جلست. تكوّرتْ على نفسها في تشنّج. حاول استنهاضها فلم يستطع. حضن الجسد المتكوّر فلم ترفع رأسها. صار يبحث عنه بيدين متصلبتين حتى مزّق أجزاء من قميص النوم، وجرّح أسفل ذراعيها الطريق إلى صدرها. بدأت تبكي. هددته بأنها سوف تشكوه إلى عباس فضحك:

– سوف أسافر قبل يومين من عودته.. ما رأيك؟!

نهضت مسرعةً، ضربته في بطنه برأسها فسقط على ظهره وهو يضحك. فتحت الباب ووقفت خارج شقتها.. خرج بثقل:

– والله أحبّك زوجة أخي...

المكان في السجن لا يمكن فهمه..



وحده

الإنسان في الدنيا يستعير إنساناً آخر ليصبح سجينه وذليله، يعطّل فيه كلّ شيء حتى استخدامات الجسد. كان زكريا أكثر المساجين تبرماً وضيقاً وثورة على ما هو فيه. وهو أكثر المساجين شعبية أيضا، يهب السجن حيوية من لياقة الحمام. ينال من كلّ واحد فيه فلا يغضب منه أحدٌ. قدماء السجن لهم دور كبير في تهدئته في أيامه الأولى. لم يكن يتحدّث مع أحد. وإذا تحدث يسأل بصوت يسمعه المساجين في زنزاناتهم المفتوحة على ممر ضيّق يبدأ من الباب الرئيس، وينتهي بباب الحمام. يهلوس. يسأل عن السجن فلا يجيبه أحد. يتهامسون، يبتسم بعضهم ابتسامة ضجر. وكلّما انتهى زكريا من إطلاق ضجره عمّ الهدوء في السجن كلّه. لا يقترب منه أحد. تفرّد بحالته بين المساجين، فعاد أحد لا يذكر حالة السجين مرتضى لم يسمع أحد من المساجين صوته مدّة ثمانين يوماً يرونه يتجوّل في الممر بسرواله البني وقميصه الأبيض، حتى أتى السجين الفوضوي «عادل» بقصته من أحد الشرطة، وسمع مرتضى بعضهم يتهامسون







بها فضجّ السجن كلّه لغضبته في ذلك اليوم، وتهدد «عادل» بلكنة فارسية واضحة. يومها عرفوا أنّه يتكلم، وأنّ كلامه لن يتوقف.

حاول اثنان من المسجونين بتهمة توزيع المنشورات المناهضة للدولة التقرب من زكريا، ومعرفة قضيته، فربما يكون من جماعتهما. مَنْ يدري؟ لكن استغراق زكريا في التحدث مع نفسه في زنزانته جعلهما يترددان كثيراً. فالسجين الذي يحدّث نفسه مسكون بألم المكان غير المفهوم. رويا عنه أنّه قال:

– « تطير الحمامة وتعود. لا تسكن إلا إذا عادت إلى مكانها. تطير وتطير وتطير وترى عوالم ربما أجمل من مكانها لكنها لا ترتاح إلا في مكانها حتى لو كان خرابة، أو سحاحير عتيقة نتنة».

يتأوه، يضع رأسه بين ركبتيه ثمّ ينظر إلى سقف السجن يقول ذلك بعينين مفتوحتين على البصر كلّه. كان يمدّ ذراعيه جناحين، ثمّ تدمع عيناه.

في أيامه الأولى في السجن كان عصبيّ المزاج خصوصاً بعد أن عرف أنّه لن يستطيع أن يشرب أكثر






من كأس شاي واحد في اليوم. في صباح يومه الأوّل تشاجر مع سجين باكستاني قديم لأنّه ملأ كَظيمة شاي لديه قبل المساجين. رفض الباكستاني ملء كأسي سجينين لم يحصلا على الشاي فأمسكه زكريا من تلابيبه وجرّه إلى ممر السجن. تدخل شرطيان لحلّ النزاع. صادرا الكظيمة بعد أن وزعا الشاي على المساجين.

في صباح كلّ يوم وبعد وجبة الإفطار: شاي بالحليب وخبز أعجمي، يأتي الشرطي «أيوب» بأدوات ومواد التنظيف. يختار أربعة مساجين لكنس الزنزانات وتنظيف حمام السجن، ومسح جدران الممر. بفضل «أيوب» وتعاون المساجين يبقى السجن نظيفاً. أعجب «أيوب» باهتمام زكريا بالنظافة، وبخفّة روحه، وكثرة اقتراحاته ليبقى السجن نظيفاً فصار يطلب منه اختيار مساجين التنظيف يومياً. صار زكريا مشرف التنظيف فانفتحت علاقاته على كل المساجين. لكن فرحة زكريا كانت أكبر عندما رشّحه «أيوب» لدى إدارة السجن ليكون مشرف فريق تنظيف مكاتب الشرطة المدنية في إدارة السجن في الدور الثاني. المساجين يعرفون جيداً





أنّه ليس في فريق تنظيف المكاتب سجين سياسي: السجين «محمد» كسر يد زوجته بعد شجار عنيف. لا أحد ينسى يوم أدخلوه بوابة السجن وهو يبكي. قاوم دخول السجن فصفعه الشرطي مرّات. السجين «وليد» سكر في بار فندق فشتم شخصية هامة، وكسر زجاج باب البار. في اليوم الثاني عرف أنّه السجن فابتسم وقال:

– تفْ عليهم وعليكم جميعاً أولاد النغلتين أولاد القحبتين.

السجين « عبد الله» اعتداء على طفلة عمرها 11 سنة، السجين«محمود» اغتصاب خادمة بيته ثلاث مرات في أسبوع واحد، والتسبب بعاهة مستديمة في صدرها، السجين «مرزوق» تهديد والد حبيبته بالسلاح الأبيض، السجين المشرف «زكريا» شتم ضابط استخدم نفوذه لشراء زوجي حمام «الراهبة» بنصف السعر. اشتدّ بينهما الكلام، اشتبكا بالأيدي فتلقى الضابط لطمة قوية تركت أثراً. هؤلاء هم فريق تنظيف المكاتب المدنية في إدارة السجن، ومطبخ الشرطة في الدور



الثاني، وعلى زكريا أن يختار أربعة منهم بعد انتهاء عشاء المساجين.

صارت العلاقة بين زكريا والشرطي «أيوب» وثيقة، أصبح يوصل أخباره لعائلته بطريق غير مباشر، إلا يوم مولد «فاتن» جاء بنفسه يحمل الاسم إلى بيت زكريا.

بات المساجين ينتظرون نزول فريق التنظيف كلّ ليلة يحملون لهم ما فضل من عشاء الشرطة، بعض الفواكه، الخبز، الشاي الأحمر. يجتمع بعض المساجين في زنزانة زكريا فيطيب لهم الكلام. طلب أحدهم من زكريا أن يحضر له قلما ولو كان قلم رصاص:

– وماذا يفعل مسجون بقلم الرصاص؟ قال زكريا.

– في بالي قصيدة شعر.

قال السجين ذلك فوعده بأنّه سوف يحاول الحصول على ذلك من الشرطي «أيوب». طلب زكريا من السجين «مرزوق» أن يحكي للمساجين قصته مع والد حبيبته فامتنع. هدده زكريا ضاحكاً بأنّه سوف يرفع اسمه من فريق التنظيف ويضع الباكستاني فاستجاب له:





– « ما كنت أعرف أن ما بيني وبينها هو الحبّ. فلما تمكّن منا صرنا نلتقي بعد غروب الشمس كل يوم تقريباً إلا يوم الجمعة. أبوها لا يعمل يوم الجمعة. كان بيت عايشة يبعد عن بيتنا خمسة أسطح. أقفز عليها حتى أصل سطح بيتها. كنت سأقول لو أمسكني أحدهم بأني أطارد حمامتي. لكن ليس عندي حمام أصلاً. وفي يوم كسرت قوانين الاتصال والتقيت بها يوم الجمعة. ما كنت أستطيع الصبر. كان خاطري أراها، أقبّلها، أحضنها ولو لم أفعل لدخلني من الجنون الكثير. لا أعرف لا تطلبوا مني مزيدا من وصف ما بي من عايشة. لولا حبّي لعايشة ما عشت.. وفي يوم حدثت مفاجأة غير محسوبة، فقد ركب أبوها ورآني أحضنها بقوة لدرجة أننا ما سمعنا صوته وهو يفتح باب السطح».

– يا الله هذه حمامة حقيقية. "قال زكريا".

– «رأته عايشة لأن وجهها كان قبالة الباب فاكتفت بالضرب على ظهري فظننت أنّ ذلك تابعا للموقف الذي نحن فيه. صرخ بأعلى صوته «يا كلب».. ففزعتُ وقفزت من على السطح من دون أن ألتفت





فجُرحت رجلي اليمنى. لا أعرف ما الذي فعله السافل بعايشة. استجمعت قوتي وذهبت إليه البيت أحمل سكين مطبخنا، هددته بها أمام الحيّ كلّه وبأني سوف أقتله إن أصاب عايشة مكروه.. عايشة أولاً».

– هل يعني أنها الحمامة وأنت الكلب؟

قال زكريا ذلك فضحك الجميع. وقف شاعر السجن وهو يضرب على يده. ورفع صوته منشدا:

حكاية الكلب مع الحمامة

تشهد للجنسين بالكرامة

تذكَّر بعض المساجين أنشودة الصف الخامس الابتدائي اللذيذة فوقف منهم ثلاثة رابعهم زكريا، صاروا ينشدونها بصوت واحد:

حكاية الكلب مع الحمامة

تشهد للجنسين بالكرامة

يقال أن الكلب ذات يوم

بين الرياض غارقا في النوم

فجاء من ورائه الثعبان

منتفخاً كأنّه الشيطان





وهمّ أن يغـــــدر بالأمـين

فرقّت الورقــاء للمسكـين

ونزلت توا تغيـــث الكلبا

ونقرتــه نقـــرة فهبـــا

فحمد الله على السلامـــة

وحفظ الجميل للحمامـــة

كانوا ينشدونها ضاحكين، وشاعر السجن يشير بيده نحو «مرزوق» كلّما وردت كلمة «كلب» في الأنشودة.

– ولا سلامة ولا هم يحزنون.. الكلب في السجن منكسر.. والحمامة نتفوا ريشها.. ساعدك الله على هذا الثعبان . لكن تستحق أحلى وألذ كوب شاي أحمر. ليت شاعر السجن يشرح لنا «فنقرته نقرةً». قال زكريا ذلك وضحكوا.

– لكن هذه القصيدة حُذفت من مناهج وزارة التربية.. ألحين صاروا يضعون قصايد باردة للتلاميذ، قصايد مملة لا شعر فيها، قصايد تخرّب الشعر كلّه. "قال شاعر

السجن".

في اليوم التالي علا صوت زكريا في السجن:

– ماذا معنى السجن يا جماعة؟

فعمّ الهدوء. عادت الحالة لزكريا ظلّ يفعل هذا حتى التقى في ليلة من ليالي تنظيف المكاتب بما يشغل يومه كلّه. يروي العاشق مرزوق:

– « كنا نمسح الغبار ورماد السجائر عن طاولات الموظفين ، وهو آخر عمل نقوم به كل مساء. كان زكريا يفعل مثلنا ولا يميز نفسه علينا بشيء. فجأة سمعته يقول «أنا أعرف هذه الرائحة. هذه الرائحة ليست غريبة عليّ. صار يدور في غرفة المكتب الكبير المشترك كالمجنون رافعا أنفه. قلت له: أعتقد إنك الكلب وليس أنا فلم يهتم، وطلب مني الصمت ففعلت. صعد فوق إحدى الطاولات ثمّ قفز على الثانية ثم الثالثة ذكرني بسطوح عايشة حتى توقّف فوق آخر طاولة وقال «من هنا الرائحة». نزل طالباً مني مساعدته في زحزحة الطاولة أسفل مكيف الهواء مباشرة، رمى كل ما فوقها على الأرض. وضع كرسي المكتب فوق الطاولة وطلب



مني أن أمسكه حتى لا يسقط. صار يشمّ المكيف حتى توقف عند الإطار الخشبي العلوي للمكيف. حاول نزعه مرّات و لم ييأس. ارتفع الإطار وسمعنا جميعا صوت طيران. مدّ يده ثمّ نزل يضمّ بين يديه فرخ طير قال:

– بصبص حمامة «دَشْتِي».

وضعه في يد أحد المساجين وركب يعيد الإطار. طلب منا جميعا السكوت، وأن لا نخبر غير مجموعة السجن. في تلك الليلة عاد فريق التنظيف بفرخ حمامة. طلب مني أن أرتب لاجتماع المساجين الليلة في زنزانتي بدلاً منه ليخطط لإخفاء الحمامة. لكن الخبر سرعان ما انتشر فصوت البصبص لا ينقطع، و لم تعد نوبة السؤال تنتاب زكريا من جديد. هدد زكريا الباكستاني إن هو وشى سوف يضربه، ويحرمه من الشاي كلياً»

يستيقظ زكريا في الصباح الباكر يطعم «البصبص»، يمضغ الخبز في فمه ثمّ يغرّه، والبصبص يبضّ نحوه كلّ حين. رآه مرزوق مرّة يفعل ذلك مرّات في اليوم الواحد، ولا يملّ، فقال:



– سيظن أنّك أمّه.

– أبوه يا كلب.. ثانياً هذه أنثى وليست ذكر. «قال زكريا وضحكا معاً».

– لكن قل لي كيف تعرف أنّها أنثى؟

– الناس عادة يعرفون ذلك من مسافد الحمامة قرب فتحة الشرج، وأنا أعرف ذلك من الوجه فقط.

– منذ تلك الليلة وفي بالي سؤال آخر.. البصبص له صوت صحيح؟

– صحيح!

– عندما اقتربت من إطار مكيف الهواء. وضعت أنفك لا أذنك؟

– إيه.. انتبه يا عاشق الحمامة. عندما يعرف ذكر الحمام أنّ سفاده تمكّن من حمامته، وأنّ البيض سيبدأ في التكوين يبدأ بجمع الخوص والخيوط وكل ناعم وخفيف من كلّ شيء. ولو وجد من الخوص ما يكفي ما بحث عن غيره. لا يحتاج إلى خوص كثير. الحمام يصنع عشّه على قدر جسمه، ولا يتجاوزه. يكفيه ما يصلح لعمل أرضية خفيفة يجعل بعض خوصها يشخص



من الجوانب على شكل دائرة حتى يحمي البيض من السقوط إذا تحرك فوقه أو هبت ريح قوية. بعد ذلك يقوم الذكر وتقوم الأنثى بتغيير رائحة الخوص. كل واحد منهما يفرز رائحة من جسمه على العشّ فلا يكاد أحد يميز بينهما في الرائحة. تعرف لماذا يفعل الحمام ذلك؟

– أمممم... لا؟

– حتى إذا باضت الحمامة كأنّ البيض مازال في داخل الحمامة. داخل رحم الحمامة فلا يفسد. ولو فقس البيض وخرجت منها البصابص لا تتغيّر عليها طبيعة الرائحة لو غادر الأب أو الأم العش أو كلاهما فلا يدخلها الهم، ولا الضيق. هل رأيت لو أنّ الأب سافر وعنده طفل يسأل عنه كل يوم يبكي ويطلبه ماذا يفعلون له؟ يحضرون بعض ثياب الأب المستخدمة حتى يشمها ويهدأ فلا يمرض. ورأيت لو ولد إنسان لم يكتمل يوضع في حاضنة من زجاج فيها حرارة بطن الأم؟ الحمام مثل الإنسان. هذه الرائحة مميزة عندي وأعرفها حتى لو كنا في دكان عطر. عرفت؟

– عرفت.

– إذن كيف تعرف رائحة عايشة؟ أم أنّك مثل صديقتي الأولى قلت لها مرّة: رائحتك صارت في نَفَسي فقالت: إيه.. العطر اشتريته بـ 34 ديناراً! أنا أقصد رائحة الشخص وهي تعني رائحة العطر؟ فهمت أم أوقظ لك شاعر السجن ينشد «حكاية الكلب مع الحمامة»؟

–ههههه.. لا.. والله فهمت. كانت عايشة تقول لي «لك رائحة مميزة» فتبالغ في الاقتراب منّي. هي علمتني كيف أقترب، وبمَ أبدأ، وكيف أنتهي. هي أيضا فيها رائحة حلوة لكني لم أخبرها بذلك. رائحة كأنّي أعرفها من زمن بعيد كلما حضنتها أكثر شممتها أكثر. عندما أقبّلها أسفل أذنها أشمّ رائحة ذاتها بقوة وكأنّي أغطس في عين من رائحة عايشة، كأنّي قرب ينبوع عطرها، خزانة عطرها. فكنت كلما عبرت سطحاً إليها أشمّ تلك الرائحة. وحشتني عايشة يا زكريا. آه.. فديت عايشة ورائحة عايشة وخفّة دم عايشة والسطوح إليها سطحا سطحاً.

أصبح البصبص «حمامة السجن» يقفز ويطير



قليلاً، ينتقل من كتف زكريا إلى كتف مرزوق. تغيّر جو السجن كلّه، وصار يمكن تقسيم تاريخ المكان فيه إلى ما قبل «حمامة السجن» وما بعدها. علم الشرطي «أيوب» بأمر «حمامة السجن» فلم يصدر منه تعليق. فلما استوى جناحا «حمامة السجن» اقترح مرزوق على زكريا إطلاق سراحها، فدخله غمّ كبير، وتلبسته حالة تشبه حالته تلك قبل عثوره عليها. لكنه سرعان ما اقتنع باقتراح مرزوق، وأنّها لو بقيت لن تعيش حياة طبيعية وتتكاثر. هو يعرف أنّ حياة الحمام أكثرها طيران وتكاثر، وليس في السجن غيرها، وليس في السجن سعة للطيران غير طيران أحلام يقظة المسجونين.

أُعلن في السجن أن فريق تنظيف المكاتب سوف يطلق «حمامة السجن» بعد عشاء مساء الخميس. قال زكريا:

– الحمامة لا تجيد الطيران في الليل إلاّ مفزوعة، أو مرغمة.. لكننا سوف نضعها على أغصان شجرة الكافور القريبة من نوافذ الدور الثاني جهة الغرب.. والله يسلمها في الصباح.





كان التوديع مهيباً، لم يجرِ مثله في توديع أقدم المساجين في تاريخ هذا السجن. وضعها زكريا على كتفه الأيمن ومشى بها في الممرّ فكانت أيدي المساجين تمرّ عليها مثل حمامة على موكب «خيل الجناح» في ذكرى يوم العاشر من محرم في قرية زكريا. سمح زكريا للباكستاني أن يمسح على الحمامة ويودّعها. قال له:

– أنا أعرف أنّ في باكستان أفضل أنواع الحمام.

في تلك الليلة عاد زكريا صامتاً فلم يقوَ أحد على محادثته.





وفي الصباح كانت «حمامة السجن» بين قضبان نافذة زنزانة زكريا التي لا تصل إليها الأيدي. نهض زكريا لا يحوّل عينيه عنها. رجع إلى الوراء حتى يرى المشهد كاملاً، قال لها «صباح الخير» ثمّ علت منه أنّة.

أعلِن في السجن: يُطلق سراح زكريا..
ودّعوه بالطريقة ذاتها التي ودعوا بها «حمامة السجن». وضع زكريا على كتفيه جناحي المحبّة ومرّ يهب كلّ سجين ريشة من جناح الودّ. لم ينس زكريا الباكستاني. اعتذر منه وأوصاه بالشاي. قال لهم:

– ترقبوني على نوافذ زنزانتكم كلّ صباح.

ضحكوا. بالغ مرزوق في ضمّ زكريا إليه. تمنى له الخير:

– هل تحب أن أخبر عايشة بشيء؟ «سأل زكريا مرزوق».

– إيييه.. لو رأيت عايشة يوماً وعرفت أنها عايشة قل لها: إذا لم تعد تذكرني ساعات الغروب سوف أرتّب خيبتي على كلّ سطح منزل عبرته إليها.

كان الحيّ يضجّ، يستعدّ لاستقبال زكريا الذي قهر الطغاة، و لم يَلن لأحدٍ، و لم يعترف، و لم يخبر بأيّة معلومة عن رفاقه مهما كانت. عرف الحيّ أن موعد وصوله إليه سيكون ظهراً، فوضع شبابه السعف الأخضر على



أبواب المنازل في مداخله الثلاثة. الجو حار. صارت النسوة المنتظرات زوايا سواد. زوايا من كلام لا ينتهي. نساء يلملمن صور المارة في لمح البصر ثمّ يفتحن الكلام عليها. وأيّ معنى للصورة إن لم يفتحها الكلام؟

قيل سوف يأتي من المدخل الشرقي للحيّ، وقيل من المدخل الجنوبي. أيّا كان المدخل فلن يفوت منظمي الاستقبال المرور به على الحيّ كلّه. المسافات في الفرح لا تختصر هنا إلا حين يكون الفرح بحبّ امرأة. يمرون بزكريا في موكب زفاف عريس مناضل جديد في وجهه الفرح والخجل والجرأة معاً. عيناه في الأعلى أكثر كأنّه يرى السماء كلّها حمام.

مرّوا به على بيت أخته الكبرى فلمحها في شرفة البيت بمشمرها الأخضر ترمي أغصان المشموم على الموكب، وترمي ابنتها الحلويات وقطعا نقدية. تهافت شباب الموكب على الحلويات والقطع النقدية يجمعونها وتلقف زكريا غصن مشموم. كانوا ينشدون ويصلون على النبي محمد وآل بيته، وكلما انتهى الإنشاد الجماعي يهتف بعضهم «هيهات منا الذلة». حبّ وحرب في آن.





لم يرَ أحدٌ «سارة» زوجة أخيه الأكبر «عبد الله» ولا ابنتها مع المحتفلات والمنتظرات للموكب. كان زكريا يحضر ابنة أخيه من المدرسة الإعدادية في سيارته. دخلت مرّة صامتة لا تتحدث ولا تأكل. حاول أبوها عبثاً معرفة ما بها. وبعد جلسة طويلة مع أمها أخبرتها أنّ عمها أخذها إلى البحر، وأجلسها في حضنه فثارت الأم وغلى البيت بالحدث. لم يصدقها أحد. دافعت أم زكريا عن ولدها ووجهت اتهاماً لـ «سارة» بمحاولة تشويه سمعته. يومها أعلنت فاطمة –التي لا تتحدث كثيراً– ثورتها على سارة وصارت تلمز كلما جمعهما مجلس. كانت تقول «أبو محمد حرام يروح النار».

في البيت استقبلته مريم بابتسامة رضى. قالت:

– الحمد لله على السلامة أبو فاتن.

شكرها زكريا، حضن أمّه وزوجته واحتضن طفلته وقبلها، فبكت فاطمة.

– هذه حمامتي؟ قال زكريا.

لم يبق معهم غير دقائق معدودات ثمّ صعد يتفقد حمامه و لم ينزل إلا بعد غروب الشمس. زاره كثيرون





نساء ورجال للسلام عليه فكان لا ينزل إليهم حتى قيل إنّه متعب لكثرة التعذيب الذي تعرّض إليه من السجّانين الذين لا يخافون الله في عباده.

لم يتوقف زواره وهو لم يدر بالاً لأحد منهم أيضاً. لم يكن يمضي كلّ هذا الوقت مع حمامه قبل سجنه. قال إنّ قفصي الحمام يحتاجان عناية أكبر. وأنّ عليه بيع بعض الحمام فقد ضاق القفصان بها. بدأت فاطمة تروي له عناية مريم غير العادية بالحمام، وأنّ عليه تقديم الشكر والثناء إليها فلم يعلّق بغير هزّ رأسه إيجاباً.

بعد أربعة أيام تواصل مع أصدقائه مربي الحمام، وحضر جلستهم التي افتقدت تعليقاته ومنازلاته. رحبوا به وسألوه عن الحمام أكثر من تجربة السجن. روى لهم قصة «حمامة السجن» وحكاية «الكلب مع الحمامة»:

– هذه الحكاية الحقيقية وليست التي في المدرسة.

كان مربو الحمام يتوافدون إلى الجلسة. وكلما تأخّر واحد منهم يسأل عن وقت مجيئه. لفت نظره أن مربي الحمام القديم «صلاح»، الذي يعيش على أطراف القرية



به عرج واضح في مشيته:

– هل هذا القادم صلاح؟

فلما أكدوا له صحة ذلك، قال:

– كأنّه أعرج؟ خير؟

– لن نخبرك بشيء.. اسأله أنت. «صاروا يضحكون».

قبّل صلاح زكريا مرات وضرب على ظهره« السجن للرجال» فلما استقرّ بهم المكان قال:

– ها أبو الصلح .. كأنّك تعرج في مشيتك؟ سألت الشباب السفلة فضحكوا.. عساك بخير؟

– أنت تعرف أنّ تربية الحمام فيها عقبات كثيرة، ونحن نتحمّل هذه العقبات والمشاكل. لماذا؟ لأننا لا نشبه مربي الحمام العاديين، ولأن الحمام أسرار....

– أفّ يا صلاح.. قل بشكل مباشر أنا لا أحتاج لكل هذه المقدمة... أنت لم تتغير، بطيء في الكلام ... يالله قل أنا أنتظر.. يالله ...

– كان قفص الحمام صغيراً وأذكر مرّة أنّك قلت لي كبّر مساحته. طبعا تذكر؟.. أنا عرفت أن هدفك من ذلك





منح حرية أكبر للحمام؛ لأنّ قلّة حرية حركة الحمام يؤدي للسمنة غير المرغوبة في أجسادها الانسيابية، و..

– أف عليك أف... وبعدين؟ والله إذا لم تخبرني بشكل مباشر سأرجع إلى السجن.. على الأقل هناك مرزوق أبو السطوح وشاعر السجن. صحيح أنّه لم يكتب قصيدة واحدة لكن حماسه للبحث عن قلم رصاص يكفي.. قل الحكاية بحماس يا صلاح..

رفع يده إيذاناً باستئناف الحكاية. ضمّ إبهامه إلى سبابته في إشارة منه إلى أهمية ما سيقوله الآن:

– أنا اعتدت على أن يكون قفصي نظيفاً تدخله فلا ترى ريشةً صغيرة.. أنا أحبّ النظافة حتى زوجتي كانت تقول عندي وساوس نظافة قهرية.. لكن في الحقيقة أنا ...

– صلاحو يا الأعرج..قوووووووووول.. «صرخ زكريا».

– في ذلك اليوم وجدت ريشاً كثيراً يطير من القفص.. شككت في نظافتي: هل من المعقول أن يتّسخ القفص





في لحظات؟

وضع زكريا يده على وجهه و لم يقل كلمة واحدة..

- ركّز معي زكريا... اقتربت من القفص.. دخلت فرأيت دما كثيرا على أرض القفص..وجدت جناح حمامة مقطوعاً فخفت أن ألمسه.. كان القفص كلّه مذعوراً. رأيتُ كأنّ الحمام عادت من طيران ساعات طويلة. مَنْ الفاعل؟ وكيف صار الأمر.. تماماً مثلما يكتبون في الصحافة عندنا بعد كل حادث: مَنْ المسؤول؟»

- أكيد سنور «قال زكريا».

- كرهت الاستعجال فأظلم مجتمع السنانير الذي يشكل نسبة غير عادية في مجتمعنا.. تتبعت الدم في الخارج لكن يبدو أن أكثره سال من الحمامة في القفص. تقطّع الأثر حتى اختفى، لا دم ولا ريش.. حزنت على حمامتي كثيرا.

- آجرك الله والبقية في حياتك.. وهل صرت أعرجاً من الحزن على الحمامة؟ «يضحكون».

- شكراً.. لا.. لا تستعجل الإنسان بالحكمة والحكمة





لا تأتي من العجلة.. قررت أن أغلق باب القفص لكنّي تراجعت خوفاً من أن تتحول حماماتي إلى دجاج.. وجدت حلا جيدا هو أن أقلل أوقات فتح باب القفص إلى ساعتين في اليوم وتحت مراقبتي. وفي يوم احتجت أروح الحمّام. أنت تعرف لما يكون الإنسان محصوراً لا يستطيع التفكير ولا حتى التأمل.. نزلت الحمّام، ورجعت بسرعة ...

– وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون...

– صبرت كثيراً في ذلك اليوم.. فلما عدت رأيت فزعاً في القفص وريشاً يتطاير.. اقتربتُ بهدوء فرأيت سنوراً أسود لعين يأكل في صدر أغلى وأجمل وأفضل حمامة عندي. هي التي أتنافس بها، وأفتخر. فار دمي وغلا.. أخذتُ زجاجة بيبسي كولا وكسرت منها القاعدة. دخلت القفص. قلت هذا السنور ابن الكلب سوف أمزّق لحمه مثلما فعل في حمامي...»

– أول مرة أرى سنور ابن كلب....هههههه.

– وقبل أن أرفع نيتي لرفع الزجاجة قفز السنور سريعاً





وأنشب أظافره في صدري فتراجعت إلى الوراء بسرعة خارج القفص فلم يتركني إلا بعد أن سقطت من فوق السطح إلى شرفة نافذة غرفة أختي..

– يعني صرت مثل الحمامة التي تتقلب في الهواء «قلابي» يعني؟

– بالضبط.. كدت أموت.. مهما فعلت أنا غير قادر على وصف ما أصابني.. من تلك اللحظة قررت بيع الحمام والتوقّف عن تربيته مهما كان. وماذا أفعل بالحمام بعد موت حمامتي «فَخْر»؟ وبِمَ أفتخر. صرت مثل قائد جيش منكسر لا حول له ولا قوة.. كانت «فَخْر» قوتي، وحيلتي.. الآن راحت.

– سنور يجعلك تقرر التوقف عن الحمام؟ قال شاب.

– قلت لك المسألة ليست سنورا.. القضية هي «فَخْر». لا أتصور حمامي بدون «فخر»..

– الحمام يترك في الإنسان شوقا إليه لا ينفكّ عنه طول الدهر.. أنا متأكد أنك ستعود للحمام حتى لو فاضت روحك المقدسة.. قال زكريا

– ويه ويه .. زكريا من أين لك هذه الكلمات الكبيرة



«روحك المقدسة» وغيرها ما كنت تقولها؟ قال شاب يسخر منه.

– ههههه.. سامحوني.. أنا وبكل فخر ... تعلمتها من شاب في السجن سألني قبل خروجي بأسبوع تقريبا «ما تهمتك»؟ فتصنّعت إني ما سمعته. بعد ذلك سألني « ما اسمك الحركي؟» فلم أفهمه فقلت له «خير؟» فقال «اسمك الحركي» فقلت له « لم أفهم. أي اسم وأي حركي؟» فظلّ يضحك ثمّ قال «لا تحاول خداعي قل لي اسمك الحركي».. وأنا فعلا لا أعرف ماذا يقصد بـ «اسمك» ولا حتى «الحركي» فكيف أعرف «اسمك الحركي» جميعها؟ فلما يأس مني سألني «كم عدد الشهداء في قريتكم الذين فاضت روحهم المقدسة؟».. أنا بصراحة ليس لي في هذه القضايا.. فأخذ يشرح لي بعض الأمور الغريبة وقال لي أشياء كثيرة شغلتني كثيراً. وسألني لو تتعاون معنا نوزع مبشورات عن طريق الحمام..



– قصدك منشورات؟ قال صلاح.

– يمكن.. لا تتفلسف!.. المهم قلت له أنا إنسان أحبّ





الحمام أكثر من أي شيء آخر. لكن الحمد لله تعلمت منه شيئاً اسمه «روحك المقدسة».

– الله على روحك يا زكريا والله افتقدناك في هذه الجلسة. يالله.. السجن يعلم الصبر. «قال شاب».

– ومن قال لك أن الحمامة تصبر؟ وأنا في داخلي حمامة حرّة تكره حتى القفص المفتوح. تذكرون كيف كنا نقف على السطوح ننتظر عودة الحمام ساعات طويلة ولا نملّ الانتظار. تعرفون لماذا؟ لأننا ننظر إلى حمامة حرّة.. لو كانت في قفص وكنّا خارج ذلك القفص ما نظرنا إليها غير لحظة أو لحظتين. عندما كنا نعلّم الحمام الطيّار الجديد على تثبيت المكان في نفسه نربط بعض الريش في الجناحين حتى لا تطير الحمامة وترتفع أكثر من مترين. هل لاحظتم عيون الحمامة في تلك اللحظة كيف كانت مفتوحة على السماء لكنها غير قادرة؟ أنا أحسست بشيء من هذا القبيل في السجن. لا أعرف لكن السجن مكان يدوّخ.. يفسد كلّ شيء فيك. السجن ليس مدرسة كما يقولون. السجن مفسدة.





– إيه .. الحمد لله على السلامة. لكن لا تحاول لن أعود للحمام . "قال صلاح".

– الحمام أسرار إذا فهمتها فهمت روحك. ورغما عنك وعن أمّك سوف ترجع إلى الحمام. ابتعد ما تشاء عن الحمام فبينك وبينها حبل من ريش لا ينقطع.






دخلتْ مريم قفص الحمام الكبير تنثر له الحَبّ والحُب معاً...

دخلت القفص بعد أن تأكّد لها غياب زكريا. راحت تتفقد سحاحير الحمام. تبادلت النظرات بينها وبين «حوّام». سقط مشمرها الأخضر عن رأسها، وصار يسحب في الأرض. المكان الذي يتأكد لها أنها «غير» هنا، قرب الحمام، تمرّر أصابعها بين ريشه. في قفص الحمام لا يعزّ عليها المكان. الحمام يوسع الخيال. يجعل مريم تتحدث، تسرّ له فيفطن لها، ويحفظ سرّها « أقول لهم ولهن «أنا مثلكم» لكن ذلك لا يفيد. شعرت بمكانة الحيّ الذي أجيء منه. رجالهم عين عليّ، على أزيائي. حركاتي وسكناتي. ما يظهر من شق الثياب ساعة أمشي وحين أجلس وأقوم. وحتى حين أمزح باليد مع نسائهم فيهتز صدري. عينهم على المستور تحت مشمري وتحت تحت مشمري. نية الرجال هنا تكشف. يقولون لي «أنت من كوكب آخر يا مريم». قولي لي يا «حوّام» هل أنا فعلا «غير»؟

عند باب السطح توقف زكريا فجأة. رأى شيئا غير





عادى يتحرك في قفصه الكبير. كانت فتحات شبك القفص المعدنية السداسية الشكل لا تسمح بتمييز ما بداخل القفص حتى يتحرك. الساكن لا يُرى. لمح لون المشمر فعرف أنّها مريم. تذكر كلام زوجته فاطمة: "لا أحد يدخل قفصي حمامك غير مريم". تراجع إلى الوراء وصار يراقب ما يحدث. كلما توقفت مريم عن الحركة صار يحرك رأسه في جهات مختلفة، أعلى وأسفل ليرى. وكلما جعل حركة رأسه أسرع وضحت صورة مريم. أصابته الدهشة عندما مدّت يدها فهبطت لها حمامة واحدة فقط. لكن كأنّها لا تأكل من يدها «من أين تأكل إذن؟». فلما شارفت على مغادرة القفص أغلق باب السطح ثمّ عاد يفتح الباب. رأته مريم وهي خارج القفص فبدا لها أنّه للتو جاء. ألقت عليه السلام فحياها وابتسم. قالت له:

– على فكرة.. أنا وضعت لكلّ حمامة اسماً أعرفها به. ما رأيك؟

– والله؟.. رائع.. يعني صار لكلّ حمامة بطاقة شخصية؟





– هههههه .. تقريباً.

– لكن ما هي الأسماء؟ كيف أعرفها؟ يعني ممكن تريني الحمام وتخبريني باسم كل واحدة؟ يعني إذا عندك وقت.

– إن شاء الله من عيوني أبو فاتن . لكن في المرّة القادمة. أوكي؟

– أوكي.. شكرا على كل شيء.

– باي.

– مع السلامة.

دَخل زكريا القفص فوجد رائحة عطر مريم. الحمامات فيه مطمئنات مخدرات نفشن ريشهن حتى يُخيل للناظر أنه يستطيع حسابه في يسر. إلا «حوّام» في أوج نشاطها. حاول صيدها فتمنَّعت عليه، واستغنت عن ملاطفته. لم يستطع صيدها إلا بعد أن دخلت في سحارتها. كانت لا تنظر في عينيه حتى عندما رفعها في جهتهما. يدير رأسها الصغير بأصبعيه جهة عينيه فلا ينجح. مثل امرأة وجهها أمامك لا خاطرها. دخله ضيق شديد فهو يعرف جيداً أنّ وجه الحمامة لا ينفتح





بدون العيون، وأنّ عزم الحمام ساعة الطيران الطويل الطويل يأتي من عزم مربيها، وأن الحمامة تأخذ كلّ شيء من عيني صاحبها. كلّ شيء حتى نيته اتجاهها، وأنّ الحمام عيون.

أطلق سراحها فطارت فوق سحارتها مضطربة تسوّي ريشها، فهاج بها ذكران فصفقتهما بجناحيها بقوة حتى تمكنت منهما وطارا خائبين. رأى زكريا ذلك فبلع ريقه. أطال النظر إلى «حوّام». لم يرَ ذلك من قبل في حماماته. يذكر قبل سجنه أنّه كلما والف هذه الحمامة مع ذكر يناسبها يفشل. فعل ذلك مّرات. تركها لعلها تأتلف مع ذكر دون الحاجة إلى وضعها في «محكر»، فلم ينجح. جلس على سحارة خالية على الأرض يُمعن النظر إليها « أنا ما جربت موالفتها مع ذكر من القفص الآخر. غداً أفعل ربما أنجح. ما أصابتني الحيرة في موالفة حمامتين قطّ في تاريخي كلّه مثلما هي هذه الحمامة.. لكن في القفص الآخر ذكور مميزين»

يذكر زكريا أنّه كان يُطيّرها مع الحمام فكانت الحمامة الوحيدة التي تطير في السماء حتى تختفي تماماً عن عين



الناظر، وتدخل فيما يسمى عند مربي الحمام «البَنْد» أي الاختفاء الكليّ للحمام في أعلى السماء. يقولون «بَنّدت الحمامة»، ودخلت في «البند». هذا اللقب أطلق على واحد من أشهر مربي الحمام هو «صالح»، فسمّي بـ « صالح البندي» قيل إنّه لا ينتشي حتى يدخل حمامه في «البند» وليس مهمًّا بعد ذلك رجع، سقط، أو مات. ويعرف زكريا أنّ جميع حمامه يعود في موعده إلا هذه الحمامة لا تأتي تظلّ تحوم وتحوم حتى يتسع قلقه عليها. ويعرف أيضا أنّها دائما تأتي من الجهة التي لا يترقب فيها عودتها منها. ويذكر جيداً – مربو الحمام لا ينسون– أنّ الحمام حينما يعود إلى بيته يهبط قريباً من الماء والشعير، إلا هي. لكلّ حمامة مجرى في الطيران لا تحيد عنه، إلاّ هي. وعندما تعود تأتي من الأعلى لا من الجوانب. هي الحمامة الوحيدة التي وهبها زكريا اسما، ونعوتاً كثيرة. كان يسميها «فالتة»، وينعتها بـ«الهايمة» التي لا تعرف إلى أين ستطير ولا متى ستعود، تجدد سماوات طيرانها باستمرار، ونعتها بـ«لايفة» كما يلوف القارب عندما تنقطع حباله، فيلوفُ بحريته،





يصطدم بالقوارب الثابتة في البحر، يتجاوزها، لا يسيّره الشراع، ولا الماء قادر على رسم جهة حركته، كلاهما: القارب والحمامة يسبحان في زرقة، لا يحسن تقدير فضلها إلا هما. سمّاها «فالتة» وسمّتها مريم «حوّام».




يقول لها: «مربو الحمام لا ينسون»، فتشكو إليه نسيانه لها. تشكك فاطمة في تلك الصفة:

– ما الذي في مربي الحمام عن غيرهم؟ كلهم رجال.. كلهم ينسون نساءهم.

– ههههه.. معقول أنساك أم فاتن؟

– إيه معقول.. أنت خرجت من السجن وأنا مازلت فيه.. كلّ شيء عندك الحمام حتى فاتن كأنها بدون أب.. أنت أبو الحمام. دائما عند الحمام في السطح.. الله يستر علينا من الحمام.

– فاطمة.. أم فاتن.. عمري تعالي..

– لا.. اذهب للحمام.. كنت تقول «الحمام نسوان»؟ إذن رح تفقد نسوانك في السطح نم معهم وارتاح..

كان الوقت قد تجاوز منتصف الليل. زكريا يشرب الشاي ممدد الرجلين، ويشاهد التلفزيون في غير انتباه. فاتن نائمة، وفاطمة تعيد ترتيب الشقّة. هذه فرصتها طوال اليوم للكلام والمكان. سحبها من يدها فسقطت فوقه. علت منها ضحكة أغلقت كلّ شيء، وفتحت كلّ شيء. تبادلا القبل. تذكرا معاً ليلة الدخلة وقصة الحرس






وخروجهن غاضبات. ظنّ زكريا أن حمامته تهيأت، لكنها سرعان ما انسحبت من تحته:

– اذهب للحمام نسوانك.. عندي عمل كثير في الشقة وهذه فرصتي..

قبل أن تترك فاطمة المكان سمعا صراخاً، وحركة أقدام غير رتيبة، أشبه بالجري والتوقف في آن. أشبه بشخص يجري حافي القدمين في الأعلى فيضج السقف له:

– هذا صوت صراخ مريم «قالت فاطمة وهي تمدّ أذنها إلى الأعلى».



فتحت باب الشقة فتأكد لها الأمر. خرجت وعادت مسرعة تستنجد بزكريا:

– قم بسرعة يالله.. كأنّ أخاك عباس يضرب مريم.. قوم قووووووووووووم.. إيه لو كانت حمامة طفرت مثل إبليس... قوووم.

فتحا باب شقة مريم. تقدمت فاطمة بالدخول و لم يعط زكريا فرصة لمريم تسوي سترها. كان بطيئا قي القيام وسريعا في الدخول. تفاجأ عباس بدخولهما فزاد اضطرابه فهمّ بضربها بكلّ قوته لولا أن حالت فاطمة





بينهما فتلقت منه ضربة بينما مالت مريم نحو زكريا. لم تقف جواره بهذا الشكل من قبل. دموعها غزيرة، وجسدها يرتعش كلّه. صارت خلفه تنظر غاضبة إلى عباس من فوق كتف زكريا. اقترب منها فدفعه زكريا فسقط على الأرض:

– تعال مرّة ثانية إن كنت رجلاً... قووووم... «بأعلى صوته».

صار يتحدث إلى مريم من بعيد ويتوعدها بالانفصال ويقفز من فمه اللعاب، وحتى تلوّنت زاويتا فمه بالأبيض. عرفت مريم أن عباس يخاف من زكريا. شعرت بارتياح واطمئنان. ولأوّل مرّة لا تخاف من نظرة زكريا إليها:

– انتهى الأمر .. مريم ستأتي معي الشقة «قالت فاطمة بلهجة الآمر».

– خذيها .. لعنة الله عليها.. خليها عندك على طول.

وضعت مريم مشمرها الأخضر على رأسها. طلب منهما زكريا الخروج أولاً:

– متى ستفهم؟ كيف تضرب امرأة؟.. تضرب





زوجتك؟

في شقّة زكريا مرّت لحظات صمت وبكاء لم ترفع فيها مريم رأسها. بدأت تحاول ستر بقع الكدمات والضربات في جسدها. وكانت عندما تزور بيت أبيها من قبل تصوغ من المبررات ما يُخفي البقع الخضراء والزرقاء في جسدها أكثر ممّا تغطيه المراهم و«كِريم أساس» الذي يباع لِيُخْفِي. أعطت فاطمة إشارات إلى زكريا أن غادر الجلسة فتصنّع عدم الفهم، فقالت:

– صلي على النبي واذكري الله يا مريم عسى الله يكسر يده.

ارتفع بكاء مريم. وضعت رأسها بين ركبتيها فأشارت فاطمة لزكريا بغضب: غادر المكان، فعاد يتصنّع عدم فهم إشاراتها:

– أنا أعرف «عباس» حاد، وجاف.. جاف جداً وعصبي منذ صغره، لكنه يهدأ بسرعة، وقلبه طيب «قال زكريا».

– لا ليست هذه المشكلة. المشكلة أنّه يفرض قيوداً كثيرة. في كلّ يوم قيود جديدة. المشكلة العظمى أنّه يفرض كل



شيء بالقوة، ولا يسمح لي حتى بالكلام. كان الموضوع يسيراً جداً. قلت له سأذهب مع صديقات للغداء بعد الجامعة في مطعم فسخر مني ومنهن وشعرت أنّه يشكّ في نيّتي. قلت له المشكلة فيك وليست فيّ فهددني إن لم أسكت سيضربني. قبل ذلك بقليل كان معي على السرير وهو في أفضل ما يكون.

– الرجال كلهم شكل واحد. استهدي بالله، ونامي في شقتنا.

طالت الجلسة بالكلام فغفت عين فاطمة. أشارت إلى أنّها ستقوم للنوم فتشاغل زكريا بالحديث مع مريم. غادرت فاطمة للنوم فعادت مريم تشكو، فبدأ هو أيضا يشكو. الموضوع واحد: سوء الشريك، الغلط في الاختيار. قالت له كلّ شيء، فأسرّ لها كلّ شيء. تبادلا فشل مشاريع الزواج، تبادلا الإحساس بسوء فهم الشريك، تبادلا الشكوى من فقدان إحساس الشريك بهما، وأن ما تزوجا من أجله لم يجداه. وأنّ التوزيع غلط. فلما انتهيا قال:

– أعرف أنك لا تحبيني. أنت تكرهيني. تكرهين النظر



إلى وجهي. لكني أعتز بك كثيراً، وأعزك. اجعليني صديقا لك. قولي لي كلّ شيء. لكن لا تكرهيني.

– الآن أراك غير يا بو فاتن.

أعدّ زكريا كوبي شاي بالحليب وأحضر بعض البسكويت:

– على فكرة الحمام يحب أكل البسكويت.

قال ذلك فابتسمت مريم. بدأت سيرة الحمام. امتلأت مريم بالحيوية. فراشة تخرج من شرنقة عباس إلى سعة الحمام. لم تتردد في أكل البسكويت مع الشاي، تماماً مثلما يأكله زكريا: يغمس البسكويت في الشاي ثمّ يأكله. كلّ شيء يلين بالحرارة حتى الكره القديم. أطالت زمن البسكويت في الشاي فلم تستطع رفعه. أخرجته بإصبعها الناعمة إلى فمها وهي تضحك. بلع زكريا ريقه مرّات، فقالت:



– هل يبلع الحمام ريقه؟

–ها؟

ضحكا معا بطعم البسكويت والشاي والحمام. وقبل أن تغادر مريم إلى شقّتها فجراً قالت:





– ما رأيك أن يلجأ كلّ واحد منا إلى الآخر كلما ضاق بنا المكان؟

وافق زكريا بقوة «أكيد». بعد تلك الليلة صارت مريم تلتفت إلى معنى نظرة زكريا نحوها.

نظام العشاء في العائلة الكبيرة يقضي بتوزيع الليالي على البيوتات الصغيرة والشقق. صار لكلّ عائلة ليلة. لم يلقَ هذا النظام ترحيبا لدى مريم فكانت كثيرة التغيّب عنه خصوصا عندما يكون خارج البيت الكبير. كان زكريا يعرف جيدا أنّ مريم لم تحضر العشاء، وأنّها الآن وحدها في شقتها. استعجل الأكل وغادر. دخل الشقة في هدوء فلم تشعر به مريم الواقفة جوار مكتبة التلفزيون تسرح شعرها. حضنها فجأة من الخلف وصار يقبلها بشراهة في وجهها وعنقها، وصدرها شبه المكشوف. دفعته. حاولت التخلّص من قبضته القوية. لا فائدة من الصراخ. لا أحد في البيت:



– اخرج لا تفضحني.. اخرج أرجوك..

– أحبّك زوجة أخي.

– أرجوك غادر الآن.. أرجوك.



غادر بعد رجاء طويل. صارت تتحاشى النظر إليه. وإذا نظرت في عينيه تذكّرت صوت نفسه وهو يحضنها. الخوف السابق منه تجدد. بدأ يتصل على هاتف شقتها:

– ماذا تريد؟ لماذا فعلت ذلك؟

– أنا أحبّك..

– لماذا أنا بالذات؟ لماذا ينظر أخوتك المتزوجون إليّ بهذا الشكل؟

– أنت غير. أنت جميلة.. أنيقة.. شكل جسمك جميل. لا أستطيع أن أقول كلّ شيء مرّة واحدة.. أنا أحبّك زوجة أخي.

على غير عادة النساء في هذا البيت مريم هي الوحيدة التي لا تلبس الجوراب. لا تحبّها. قال لها زكريا مرّة "رأيت ساقك وأنت تصعدين السلّم". لم تخبر زوجها عباس بكلّ ما جرى. كانت تشكو إليه رجالا في الشارع فيصرخ في وجهها، ويقول«أنت السبب». صارت لا تخبره بشيء.

في إحدى الصباحات تسمّر زكريا طويلاً في القفص الكبير. خطر له أن يتدخل ويتصرّف في اختيارات



الحمام. أن يعيد توزيع الأزواج « التوزيع كلّه غلط. يمكنني أن أعيد ترتيب توزيع الذكور على الإناث من جديد، وأعيد ترتيب المحاكر، أزيد عددها، أغيّر نسل الحمام». كان يمسك الحمامة ويقول لها في وجهها «اختاري ذكرك الذي تريدينه. قولي ما في خاطرك. التوزيع كلّه غلط، وأنا سوف أعيد التوزيع ليكون كلّه صحيحاً».

بدأ ينفّذ ما في خاطره. الخطة مفتوحة على القفصين معاً. الخطة شاملة لحمام الفصائل المتشابهة. كانت «حوّام» خارج كلّ ذلك. صار ينقل ذكوراً من القفص الكبير، وينقل أناثاً من القفص الصغير. أخذ منه ذلك وقتاً طويلاً. كانت المشقّة في التوزيع. لا شيء ثابت. كلّ يوم عرس، وربما عرسان، ولا زواج مستمر أبدي في القفصين. فكلّما أحسّ أن الموالفة بين حمامتين غير مثمرة، مضطربة، أو بها خلل قال «التوزيع غلط»، ثمّ يهمّ للفصل ما بينهما في الحال، ويعيد توزيعهما. قال يحدث نفسه «الزواج هنا متعة ومسيار، كل حمامة على مذهبها تطير». ظلّ فترة من الزمن يصقل خواطر



الحمام بالحمام. لا رغبة مؤجلة. ندم مستطيل على ما فات من عمر حماماته، وهنّ ساكنات في خواطرهن. وقع الخاطر على الخاطر فلم يرجئ لذّة حتى لو كانت صغيرة.

ذات مساء جاء مبشراً أصدقاءه بجديده في عالم الحمام. يخبرهم بأنّ الحمام فاق الإنسان وصار يظهر ما في خاطره في عينيه. لم تعد الحمامة محصورة في ذكرها، ولا الذكر محصور في حمامته. شرح لهم ما فعله في حمامته فضجّ بعضهم، وسخر آخرون، والقليل منهم مَنْ وَفَى له، وهَمّ يسانده:



– خلاص .. ما في خاطر الحمام يكون.. «قال زكريا بثقة»

– وكيف نعرف ما في خاطر الحمام.. نسأل الحمامة مثلاً؟ «قال مربي حمام ساخر».

– إذا نظرت إلى الحمامة وصار في خاطرك شيء.. هذا هو خاطر الحمامة نفسه.. كم سنة وأنت تربي حماماً ولا تعرف ماذا في خاطر حماماتك؟... لا تربِ حماما إذن.. رب دجاجاً بدون ديكة.






– زكريا صار لا يكسر خاطر حمامته.. صار يخلط بين خاطره وبين خاطر الحمام. فعندما تشتهي فتاةً يعني أنّ الحمام يشتهي أيضا؟ «قال مربي حمام آخر».

– كنا عندما ندخل مسابقات الحمام ننظر في عيون الحمامة، فتأخذ عزمها من عزمنا. وعندما نكون محبطين تكون الحمامة محبطة وتخرج من المسابقة في الساعة الأولى. الحمام يأخذ منا، ونأخذ منه. كلام زكريا جميل. «قال صلاح»

– الله يا صلاح الأعرج.. أول مرة تقول كلاماً لذيذاً.. أسأل الله أن يصلح عرجك «قال زكريا»

– نحن في النهاية تلاميذك يا بو الخواطر. «قال صلاح».

– اترك الحمام على طبيعته مثل ما خلقه الله.. توزيع الله أفضل من توزيعك «قال شاب غاضب على الفكرة»

– بعد توزيعي صار الحمام يتوالف بشكل أفضل. صار الحمام كله نشطاً.. وما بقي من الحمام ينتظر دوره، ينتظر ألفته وأليفته الجديدة. عندما يكون التوزيع غلطاً كل شيء يكون غلطاً. والتوزيع كله غلط يا جماعة. أنا





أحبّ أن أعرف لماذا يزاوج الله بين اثنين ليس بينهما مودّة؟ يمضي وقت فيعشق كلّ واحد منهما شخصا آخر متزوجاً أيضا وتصبح المحبّة بينهما حتى العظم؟ يصبح حبا مختلفا تماما؟ عندي حمامة فالتة في القفص لا تبقى مع الذكر أكثر من شهر واحد. لا تترك في خاطرها شيئاً حتى تفعله. حرام أن أحصرها في ذكر واحد. هل هذا التوزيع صحيح يا جماعة؟ أكيد لا.. التوزيع –بصراحة بصراحة– كلّه غلط.

– أنت – بصراحة– تعلّم الحمام الخيانة «قال الشاب الغاضب».

– أي خيانة؟ أي بطيخ؟ أقول لك: التوزيع كلّه غلط. الخيانة عندما يستمر التوزيع كلّه غلط ولا نعيد توزيعه. هذه هي الخيانة . الخيانة عندما تكون الموالفة صحيحة وتظل الحمامة عطشانة وتبحث عمّا يرويها. لكن عندما تكون الموالفة غلط يصبح التوزيع غلطاً. الموالفة هي أن تحسّ الحمامة بالحمامة. إذا كان الإحساس غير موجود وراحت الحمامة تبحث عنه هل يكون خيانة؟ أكيد لا. بالعكس هذه الحمامة طبيعية جداً.



– لكن هذا ما كتبه الله لهم... كلّ حمامة وقدرها وأنت لا تستطيع تغيير القدر، وسوف ترى أنك أنت الغلط كلّه. «قال الشاب الغاضب»

قام زكريا يدير أكواب الشاي على مربي الحمام:

– انتبه في توزيع الشاي لا يصير غلط «قال الشاب الغاضب ساخراً».

– سوف أنتبه حتى لا تحدث خيانة في الشاي، فربّما تشرب من عندي شيئا آخر. يا بو الخيانات.. قلت لك من قبل التوزيع كلّه غلط حتى أنت ربّما عليك أن تربي حميراً. هذا يناسبك أكثر من الحمام. مربي الحمام قوي الذاكرة، مغامر، دقيق الملاحظة فعلى كثرة حمامه نراه يعرف كلّ حمامة من صفة أو من وصف، أو علامة، أو إشارة صغيرة فيها، أو لون مختلف في طرف ريشة صغيرة. يدير الحمام ويديرونه، وهي تعرف قدراته، ويقدرونها. تعرف شكله وصوته ورائحته ومزاجه.. الحمام نسوان يا جماعة.

– وإنت تلعب بالنساء؟ «قال الشاب الغاضب».

– لا.. أنا ألعب بالتوزيع .. ألعب بالغلط. ورأسي رأس حمامة.





كلُّ فتحة عند الحمام باب.. لصوص الحمام أيضاً..

استيقظتِ العائلةُ الكبيرة ذات خميس على فجيعة في قفصي حمام زكريا. لصوص سرقوا أفضل حمام زكريا. سيرة الحمام تطير بين المربين والمهتمين والهواة. الفجيعة أكبر عند مريم التي سمعت الخبر من فاطمة فركضت تسحب مشمرها إلى قفصي الحمام. لا صبر لها. كأنّ الباب بعيد. تفقدتِ الحمام في القفص الكبير من الشبك المعدني. تضع يديها عليه. تدخل أصابعها في فرجاته بعصبية. ملهوفة تسحب أصابعها فيهتّز الشبك كلّه. تحرك رأسها رأسياً لم ترَ «حوّام» بين الحمام. خنقتها العبرة. همّتْ إلى الباب وهي تمرر أصابعها على فرجات الشبك. دخلت القفص فَعَلِقَ َطرفُ مشمرها عند خاصرتها بمسمار غير نافذ الرأس. سقط المشمر نصفه في الخارج. «حوّام» ليست في القفص. صرخت مريم:

– لا.....

فتطاير الحمام فزعاً. اقتربت من سحارة «حوّام».



تذكرتْ يوم عادت بمريولها الرمادي ذي الياقة الخضراء تُمرجح جديلتيها من المدرسة الابتدائية. رأت ثلاثة من الشبان يخرجون من بيت أبيها يحملون أقفاصاً صغيرة امتلأت حماماً. قالت لها أمها:

– أخوك باع الحمام كلّه.. ارتحنا منها ومن الصِبية.

ركبتِ السطح وجدتْ سحارة حمامتها المفضلة خالية إلا من خوص العش، ورائحة الحمام. حزنت كثيراً وساءت العلاقة بينها وبين أخيها. لم تقل له شيئاً ولم يقل. عادت لا ترى «فيصل» صديق أخيها قرب قفص الحمام. وكانت كلما علمت أنّه سيأتي ظهراً وقفتْ عند شبك قفص الحمام بمريولها تنتظره بابتسامتها مكتوفة اليدين، مخطوفة اللون. كأنّ «صبي الحمام» رحل مع الحمام.

بعد عشرة أيام، أو أكثر عادت حمامتها المفضلة لكن أخاها لم يقتنع بفتح القفص على الرغم من توددها وكثرة رجائها بين يديه. أغلق باب القفص بالمسامير، ولم يُبقِ شيئاً من حبوب الحمام في البيت. بعد أيام هدم القفص وبقيت رائحة الحمام في الجدار. ظلا يتبادلان

النظر فى السطح. صارت الحمامة تأتي وتغيب. المكان عند الحمام هو العاطفة.

توعّد زكريا لصوص الحمام بانتقام شديد. وضع أمله في التدريب الجيد لحمامه على معرفة المكان. وأنّها إذا ما وجدت فرصة للهرب لن تبقى حتى لو حُبست فيه سنة كاملة، وتزوجت من أفضل الحمام، وأعطيت ألذ الحبوب المختارة بعناية، والمعدّة باهتمام.

بدت مريم على سفرة العشاء العائلي متأثرة كثيراً بالحدث. نظرت إلى زكريا نظرة عطف، ومساندة فقال:

– الحمام لن يبقى بعيداً عن البيت، سوف يرجع في يوم ما. لقد درّبت الحمام على تثبيت المكان بشكل جيد، والحمام يفهم المكان. أعرف أن الحمام المسروق لا يباع بسرعة، ولا يطلق في الهواء. يظلّ محبوسا ينتظر فرصة للهرب. الحمام المسروق يحبس في مكان خارج القرية..

– تعال نخبر الشرطة. "قال زوج أخته الصغرى".

– لا.. أخبرناهم مرّة عن سرقة حمام أحد الأصدقاء



فقال الضابط «روحوا (سوق الأربعاء) هذا الأسبوع تجدونها معروضة للبيع» ثمّ ضحك.. الشباب أكثر معرفة من الشرطة بالحمام.. أنا أعرف خريطة لصوص الحمام، وحركة الحمام المسروق. الحمامة لا تسرق إلا بعد أن تصبح لها سيرة بين الناس.

– عسى أياديهم القطع. «قالت فاطمة».

عند باب المطبخ استوقفت مريم زكريا وانفردت بحديث معه:

– في القفص الكبير حمامة لونها بني محمر وأبيض، في ذيلها ريشة واحدة سوداء...

– عرفتها.. هذه أفضل حمامة عندي. تظلّ في الهواء عشر ساعات وأحياناً أكثر. فيها طباع غريبة ما وجدتها في الحمام كلّه.

– نعم.. نعم هذه التي أقصد.

– أنا أسميها «فالتة» . "يشرح زكريا بيده معنى الفلتان".

– أنا أسمّيها «حوّام».

قالت مريم ذلك بصوت هادئ، دافئ فبلع زكريا



ريقه:

– إذا سمعتك أمي سوف تقول لك «حوّام ضرب الدوام».

– ما معنى ذلك؟ ما معنى «ضرب الدوام»؟

– لا أعرف اسألي أمي..

– دعنا من ذلك.. هل «حوّام»....؟

– نعم سُرقت أيضا مع الحمام.. خسارتي كبيرة لكني لست قلقاً عليها؛ لأنّهم سرقوها من أجل النَسل القوي. وهذا لن يكون.. هذه الحمامة ترفض الزواج المستمر. وهي لا تبقى مع الذكر أكثر من شهر.. ولا تبيض.. حاولت موالفتها مع أفضل الذكور مرّات فلم أنجح. الآن صارت رائعة. صارت منزلتها في عيني كبيرة جداً، وهي في بالي كل لحظة وكل دقيقة. آخ.. «حوّام» فجيعتي وقصتي مع الحمام.

ابتسمت مريم وانسحبت من الحديث «آخ لو يعرف». ابتعدت عنه فعاد للتجهّم والضيق. بعد العشاء رافق زكريا عباس إلى شقته. وقف جوار الباب قال لمريم المنشغلة بترتيب المكان:



– أم فاتن تريدك في الشقة.

فأبدت اهتمامها بالأمر. أنهت ترتيب المكان سوّتْ مشمرها على رأسها واستأذنت. فلما صارت داخل الشقة نادت تطلب فاطمة فحضنها زكريا من الخلف بقوة. كادت تصرخ. كلّما قاومته تمكّن. انحسر مشمرها. بان عنقها فهاج فهوى عليه يقبله ويعضّه. سحبتْ رأسها إلى الداخل. ضغط على صدرها الصغير. رجته فلم يستجب:

– أنا أحبك مريم.. أحبك.. لماذا لا تبادليني الحبّ؟

– اتركني ..الآن تدخل زوجتك.. أرجوووك..



فلم تزل تستعطفه و لم يزل يهضمها حتى شعر بحركة جوار الباب. خرجت تجري. توقفت عند الباب تسوّي مشمرها بسرعة وتنظر إليه. لم تكن غاضبة كثيراً.

– ماذا تريد منك فاطمة؟ «سألها عباس»

– لا شيء بالمرّة.. كلام نسوان.





ثلاثُ صور فوتوغرافية، وكلام على الصور يكفي لتحويل الزوجة الهادئة، ربّة البيت الراضية المنشغلة إلى امرأة شرسة، عنيدة، ويائسة أيضا. الصباحات تتشابه في البيت الكبير ما لم يحدث أمر غير اعتيادي. الصباحات أدوار عجلة لا تسمح بالتوقف ولا اختلاس النظر للوجوه والنيات ولا الكلام الكثير إلا يوم الصور الفوتوغرافية الثلاث. لم ينسَ أحد أنها ثلاث، ولم يرها غير أربعة أشخاص: فاطمة، زكريا، مريم، والرابع لا يعرفونه. هكذا ظنّوا.

في ذلك الصباح وبعد أن خلا البيتُ من الرجال وجدت فاطمة ظرف رسالة بين زجاج وقضبان نافذة شقتها: ثلاث صور ولا شيئا آخر. فتحتها مثل أي أمّ مصنوعة من عجلة الوقت. الأم لا تتأمل في غير أمومتها. هي سورها. فتحت الظرفَ في عجلة، نظرت في الصور الثلاث معاً، ولم تفردها. لا يمكن رؤية ثلاث صور في آن. حينها يصبح ما في الصور أشباحاً. لا شيء واضح فيها غير اللون. حينها لا يتحقق من البصر غير أغلاط البصر. كادت تعيدها في الظرف لولا لون



جسد امرأة في الصورة الثانية. لم تصدق أن المرأة شبه عارية. لم تر فاطمة ذلك في صور مستقلة. هذه صور وليست صور في مجلات. لم تصدق أن الرجل جوار ذلك الجسد يشبه زكريا. عادت تنظر في كلّ صورة لوحدها. صار شبيه زكريا هو زكريا. لا مكان لمثل تلك الصور في داخلها لذا كان الموقف صعباً. بدأت يدها ترتعش. سرت حرارة ورعشة في جسدها كله مثل إنذارات حمى لجسد رقيق. ألم حاد في الحلق، وآخر في البطن. بدأت تأكل في شفتها العليا. العيون التي لا تصدق تلمع. العيون المخطوفة تتسع لكن للدموع. البصير لا تعنيه حركة العيون.



دخلت شقتها تبكي. «كيف؟! أبو محمد ما يروح النار. كيف؟ كنت عمياء؟ غبية؟ غشيمة؟». تغيّر مزاج الصباح. هذا الصباح لا يشبهه أيّ صباح. لا أحد تلجأ إليه غير مريم:

– العجلة من الشيطان يا أم فاتن يمكن التصوير قبل الزواج. «قالت مريم»

–حتى لو قبل الزواج.. حتى لو قبل البلوغ.. «تبكي»





– صلي على النبي... لاحظي زكريا يبدو صغيراً في الصور. يعني الصور قديمة .. لاحظي لاحظي أم فاتن زكريا فعلا صغير في الصور.

– لا أستطيع النظر في الصور مرّة ثانية.. صدري يؤلمني يا مريم.

– فاطمة.. لاحظي زكريا هو جالس بعيداً عن النساء في الصورة.. ربّما هو في مطعم أو استراحة في فندق أو حفلة كبيرة لكن المصوّر لم يظهر الجميع فصارت كأنّها جلسة خاصة بين زكريا والنساء.

– لماذا زكريا يبتسم في الصور.. فرحان.. هذا لا يحدث إلا في جلسة خاصة.. أنا متأكدة..

–الصورة ليست دليلا يا أم فاتن.

– لا.. الصورة دليل وأكثر من دليل.. الصور واضحة: زكريا مع نسوان عاريات.. كلّ شيء واضح فيهن.. عوراتهن مكشوفة وليست دليلا؟ هل لابدّ –استغفر الله – يصير .... استغفر الله لا أستطيع أن أقول . لساني ثقيل في هذه الأمور.

– ليس كلّ شيء نراه في الصورة صحيحا. الكاميرا





كذّابة.. الآن الصورة تكذب وتخدع وتغش وتزيف كل شيء.. الصورة كلها كذب يا أم فاتن. نحتاج أن نتأكد من زكريا نفسه. أنت زوجته وهو رجل يأخذ ويعطي في الكلام ليس كأخيه عباس دكتاتوري.. وأهم من ذلك أنّ زكريا لا يضرب.

– أنا لا أعرف هذا الكلام.. أنا أعرف أنّ هذا زكريا في الصور في آخر زينته.. وهؤلاء نسوان. كلّ شيء واضح عندي. ولديّ عيون وأفهم. خسارة يا زكريا.. خسارة يا أبو فاتن.

– ما رأيك لو نسأل زكريا إذا عاد. لا بدّ وأنّ عنده كلام عن الصور مثل ما صار عندنا كلام أكثر من الصور نفسها، وأكبر من الصور نفسها. أنا أيضا عندي سؤال: مَنْ وضع الصور في هذا المكان؟ مَنْ وضعها في نافذة شقّتك بالذات؟

– لا أعرف وهذا غير مهم عندي.. المهم أنّ زكريا صار خسارة. زكريا انكشف. قلت له من قبل الله يستر علينا من الحمام فلم يلتفت.

– لا تظلميه ولا تظلمي الحمام. لا تستعجلي أم فاتن.







– استغفر الله وأتوب إليه. كنا مرتاحين قبل هذه الصور اللعينة. «قالت فاطمة».

أخذتها مريم إلى الدور الأرضي للجلوس مع العائلة لكن فاطمة لم تستطع غير فضح الأمر بالبكاء والشكوى. انتشر الخبر. أعلن «عارف» الأخ غير الشقيق لزكريا إنّه يستطيع المساعدة ومعرفة مصدر الصور، والشخص الذي دسّ الصور. صعد معها الشقة يبحثان عن مزيد من الصور. لكنه أكد أيضا:

–أنتم عائلة يا أم فاتن فحافظوا عليها وعلى فاتن مهما حدث. سيارة زكريا واقفة في الكراج. ما رأيكم ربما الشخص الوسخ الذي وضع الصور وضع صور أخرى في السيارة.

وافقت فاطمة على الرأي. أحضرت نسخة من المفتاح. ذهبا معا إلى السيارة. لم يمضِ غير وقت قصير جداً حتى أخرج عارف ظرفاً آخر فيه أكثر من عشرين صورةً لزكريا مع نساء مختلفات. جلست فاطمة مع العائلة منكسة الرأس بالغت في استطالة مشمرها على وجهها. تخفي به دموعها والشكل الغريب لوجهها.





انفتح الوجه كلّه على الحزن كلّه.

دخل زكريا على العائلة فقال عارف:

– راح زمن الرجال. يالله. لكل رجل تاريخ أسود في حياته مهما كان.

– وجدت بعض الحمام المسروق.

قال زكريا ذلك فلم يلتفت إليه أحد. بدت أمّه غاضبة عليه. مريم الوحيدة متفاعلة مع خبر الحمام وترغب في معرفة الجديد لولا حادث الصور. رأى زكريا ذلك في استطالة رقبتها، ويقظتها للخبر، وشيء من فرح في عينيها. غادرت فاطمة باكية تجري إلى شقّتها.

– المشكلة إنّ الصور واضحة جداً.. الصورة صورة. يعني دليل قوي. صور مختلفة وقوية. قريبة وبعيدة.. ولذيذة أيضا. الصورة صورة يا جماعة. « قال عارف وهو يوزع نظراته على الجميع».

في الشقّة رأى زكريا الصور فشتم الفاعل، قال إنّه سوف ينتقم. أقسم لها أنّه لم يرَ جسد امرأة غيرها. أقسم بحبّه لها، وبحياة فاتن. فلم تنطق بكلمة واحدة. مرّت ثلاثة أيام. استعان بمريم، ووقف عند باب شقتها يطلب





منها العون فوعدته خيراً. وقفا صامتين. لم يقل شيئاً عن الصور فسألته عن الحمام المسروق:

– وجد أحد الشباب بعض حماماتي عند شاب فاسد في قرية بعيدة. سوف نذهب قريباً لنتأكد.

– هل حوّام عنده؟

– لا أعرف لكن اسألي الله أن نجدها عند هذا الشاب.

– وحشتني حوّام.

قالت مريم ذلك فتنهدت. مدّ زكريا يده ليمسك صدرها فتراجعت. علت منها ضحكة:

– عيب. هذا ليس قفص حمام.

لم يمضِ كثيراً على حدث صور زكريا حتى علا صوت صياح وصراخ من شقة «عارف» أخي زكريا غير الشقيق. خمس صور فوتوغرافية وجدتها أميرة زوجة «عارف» في حقيبة يدها. عارف عاري الجسد بين فتاتين عاريتين يبتسمون للكاميرا. غادرت أميرة إلى بيت أبيها في القرية ذاتها فلم يكترث عارف و لم يسأل عنها. قال:

– لا أحد يرضى فيرتاح.





– رأس أميرة رأس حمامة. «قالت أم عبد الله».

تدخلت مريم فأعادت أميرة في اليوم الثاني:

– لا أعرف كيف أشكرك؟ قالت أميرة.

بين عارف وأبيه قطيعة منذ زمن طويل. منذ أن كبر عارف وتعددت نساؤه، ولذّت خمرته. هو لا يشرب في البيت، و لم يعد إلى البيت سكران غير مرّة أو مرتين قبل زواجه بكثير. قال عمه «الزواج له ستر ووِجَاء» من الخمر والنساء فزوجه إحدى قريباته. كانت زوجته تقضي أكثر وقتها وحيدة. عارض أبوه زواجه، قال يومها لأخيه المتحمّس لزواجه: «منْ زوّج ابنته لشارب خمر فقد قطع رحمها. وعارفو شارب خمر». لم يكترث العم صاحب نفوذ الكلمة في القرية كلها، واكتفى بالقول «عارف ولدنا».

ساءت العلاقة أكثر بينه وبين أبيه عندما صاروا يجدون علب البيرة الخالية مصفوفة عند باب شقته كلّ فترة. على العشاء نفى عارف علاقته بها، وأكدّت زوجته صحّة نفيه:

– لم أشرب الخمر في البيت منذ أن خلقني الله. «قال



عارف».

– في بيتنا كلب صور يا جماعة.. «قال زكريا غاضباً».

– تعني الكلب الذي في الصور؟ .

قالت فاطمة ذلك وهي غاضبة جداً كأن الحدث للتو صار. فأشارت إليها مريم أن هدّئي من غضبك. وجدت زكريا شبه منكسر فأرسلت إليه ابتسامة خفيفة جداً فاستوى. فطنت أميرة لابتسامة مريم فامتعضت، وحركت مجموع شفتيها إلى الأعلى. كانت لا تبتسم منذ دخولها البيت. تتعمد أن تشعر أهل البيت بأنها تراقب كلّ شيء حتى حركة تردد السرّ بين الاختفاء والفضيحة.

قيل لفاطمة: «يا فاطمة زوجك يتخطفه طير يشبه الإنسان، يحوّم به عنك فيه فلا يراك». غادرت فاطمة غرفة العرّافة «أم سعيد» يتخطفها الشّك والحيرة. ورثت «أم سعيد» العرافة من أبيها الملا دفتره الخاص فيه رموز وحروف وشخابيط متداخلة، تشبه شخابيط نفس الإنسان. أخذت منه كيف تجعل الزبون في قلب



الثقة في حركاتها ولفتاتها، وكل ما تقول ويصدر عنها.
كان أبوها الملا يتربع فيجلس الناس بين يديه أمام جميع الناس. لكن «أم سعيد» اتخذت طاولة وكرسي في غرفة خشبية حديثة صنعها لها زوجها النجار المنهك بعد أن مات الملا واحترفت أم سعيد المهنة. في وجهها آثار قسوة وبقايا وشم في ذقنها.

في الزيارة الأولى قالت لها:

– زوجك يا فاطمة واقع في قيد عمل سيء من ناس غريبين. سأحتاج أولاً أن أفكّ العمل. روحي الآن وتعالي بعد سبعة أيام. في المرّة القادمة أحضري معك صورة غير ملونة لزوجك. ضعي هذه الورقة تحت وسادته.

دفعت فاطمة عشرين ديناراً وغادرت تنظر في وجوه نساء ينتظرن الدخول على أم سعيد. كن هادئات، صامتات. يحملن هموم ارتكبها البشر وعجز عن حلّها البشر، فرحن يبحثن عن خلاصهن وسعادتهن المهدورة فيما وراء البشر. نساء يبحثن عمّنْ يفكّ عسراتهن بتمائم وتيسيرات سحرية، يُبطل سحر النساء في رجالهن



بالنساء.

في الزيارة الثانية قالت أم سعيد:

– زوجك فيه شوق. إزالة المسّ صعب لكن ليس على أم سعيد. لا تخافي زوجك سوف يعود إليك أفضل ممّا كان. العاشق الذي يبتعد يعود.

تكررت الزيارات وتمكن الشوق كلّه من زكريا .

غضبت فاطمة:

– ما فعلت شيئا يا أم سعيد، وزوجي يضيع.

– قلت لك الأمر صعب جدا. إذا تمكّن الجناح وحلّ في العضو المشابه له في الإنسان يصير الأمر صعبا جداً. أحتاج إلى صورته لأفك عقدته.

راحت فاطمة تبحث لزكريا عن صورة يكون فيها وحده فلم تجد. مئات الصور في عشرات الألبومات ولا صورة لزكريا إلا جوار الحمام. طلبت من مريم مساعدتها بعد أن روت لها قصتها مع أم سعيد، فغضبت:

– يا أم فاتن تحتاجين أن تجعلي بيتك سعيداً لا أم سعيد. تحتاجين أن تتغيري ليتغيّر البيت كلّه. ما رأيك لو نشتري



لك بعض الملابس المختلفة؟ نشتري لك أزياء جديدة؟ ما رأيك لو نغيّر لون حجابك؟ لو نذهب إلى الصالون نسوّي شعرك؟ ننظف وجهك؟ أنت صغيرة لكن تبدين في الستين من عمرك.

– أخاف...

– أنا سوف أتصرف ما رأيك؟ وزكريا لن يغضب. فما نفعله من أجلك ومن أجله.

– وأم سعيد؟

– طز في أم سعيد. هذه امرأة دجّالة. هل رأيتِ حمامةً في شكل إنسان؟ كائن نصفه حمامة والنصف الآخر إنسان؟ سرقتْ أموالك و لم يحدث شيء.

– هل تذكرين أنّك قلتِ لي مرّة منذ زمن «الحمام مفطور على شبهه بالإنسان»؟ تذكرت كلامك عند أم سعيد وصار جسمي يرجف.

– قلت لك أم سعيد امرأة خَرِفة. لم تخبريني عن رأيك في مشروعي الجديد. نبدأ أو لا؟

– أشعر أنّه لن يتغيّر شيء في زكريا. أم سعيد قالت: زوجك فيه شوق.. زوجك ممسوس من حمامة إنسية.





أتذكر أن زكريا كان دائما يقول إنّه مصاب بالشوق للحمام ولا يستطيع التخلّص منه مهما كان.

– إيه.. يسمونه «الشوق» لكن لا علاقة له بالمسّ بالحمام. لكن لكثرة حبهم لهذا الأمر سمّوه «الشوق».

اسمعيني أم فاتن: كلّ شيء يمكن أن يتغّير مهما كان.

– إلا الممسوس من الشوق.. أحيانا آراه ينزل من عند الحمام فأخلع ثيابي في السرير فلا يهتمّ بي. وتقولين لي له علاج؟ أي علاج، أي حلّ.. زكريا فيه حمامة تحوم.




عادتْ حماماتُ زكريا إلى محاكرها وسحاحيرها.
لم يعد في القفص تلك الضجّة فما بقي من الحمام لا يتجاوز خمسين حمامة. التقى بمريم قبل نزولها إلى فاطمة عند قفص الحمام الكبير ساعة الغروب فتذكر «مرزوق عايشة» صاحبه في السجن. قال لها:

– لمحت حوّام أمس هنا.

شهقت فاتسعت عيناها وضاق صبرها و لم تصدقه:

– هل صحيح أنّك رأيتها؟ أنت تكذب عليّ. كريه. لا أكلمك.

–والله.. وأقسم بصلاة أمي وأبي كانت هنا.. لكنها لم تهبط على القفص.

– أين هبطت إذن؟

– على سطح بيت الجيران. حاولت تسلّق الجدار إلى سطحهم فطارت بسرعة.

– لا أصدّق. لماذا لا تحط هنا؟ كنت تدرب الحمام على تثبيت المكان جيداً. رأيتك مرّة تنتف الريشات الأساسية من جناحي الحمامة الجديدة بقسوة أو تقصه بمقصّ قاس أيضا حتى لا تطير وهي لم تثبت على المكان. رأيتك





تتعب في ذلك وتبذل وقتاً طويلاً. قلت لي مرّة أنها لا تبهط إلا في شكل عمودي؟

– لا أعرف. لكنني متيقن أنها هي؟..

غادرت مريم محبطةً إلى شقتها وعيني زكريا على ردفيها المكورين. فلما وصلت باب الشقة حوّل نظره نحو القفص. كانت حوّام تملأ وقت مريم وتخفف من وحدتها، وهي التي لا يعرف قلبها الفراغ. هذه المرّة الأولى التي تبقى فيها مدّة طويلة بلا حبّ، وبلا حبيب. مريم سلسلة من العشّاق، لا تترك عاشقا إلا وهي في حضن آخر حتى شعرت مرّة أنّ عشّاقها يعرفون بعضهم البعض فتضحك. وقد تتواجد في مكان فيه ثلاثة عشّاق مروا بها فلا يعرف أحدهم أنّه مرّ بالحضن ذاته. وعندما تغادر أحدهم يبقى ظلّها فيه لا يغادره. تغادرهم وسياقها يبقى فيهم.

في نهاية المرحلة الابتدائية أُعجبتْ بصبي الحمام «فيصل»، جارها الذي يعمل أبوه في بستان صغير، لا يملك فيه غير خضرة الزرع. وليس النخيل ممّا يملك فيه. كان ينتظرها كلّما عادت من مدرستها ظهراً. قالت لها





صديقاتها «إنّه لا ينظر إلا إليك» فتبتسم وتقول « لينظر كما يشاء». ظلا هكذا حتى التقت به صدفة في زقاق ضيّق خلف بيته مباشرة. اقترب منها. قبّلها في خدها سريعاً وغادر. كانت قبلتها الأولى. ترسلها أمها كل يوم بفضلات الغداء تأخذها إلى الدجاج والغنم في البستان الصغير. وإذا نسيت تُذكّرها بجملة تتصنع فيها الملل ممّا تفعل:

– أف.. هل سآخذ الفضلات إلى بستان الحاج علي اليوم أيضا؟

فيأتيها الجواب سريعاً «لا أحد غيرك. ضعي مشمرك على رأسك».

بعد الغداء يأخذ الحاج علي قسطاً من الراحة في عرشة من سعف النخيل. لا صوت لمضخة الماء. لا أحد يروي الزرع ظهراً إلا مضطراً. تترك الفضلات للدجاج والغنم وتلتقي بصبي الحمام «فيصل» عند حوض الماء الصغير. لا يفعلان شيئاً وقلما يتحدثان. جاءت مرّة فلم تره عند الحوض فضاق بها البستان. سحبتْ رجليها دون عينيها. شعرتْ بشيء من الخوف زاد بعد





أن سمعت صوت أقدام تمشي خلفها على ورق اللوز اليابس فيتكسّر. لم تقو على النظر إلى الوراء. توارت خلف نخلة. توقّف الصوت. تفاجأت بغصن توت أخضر يأتي من خلف النخلة نحو وجهها. صرخت. ضحك «فيصل» فحضنته بقوة. لم يحدث هذا من قبل. لم يفعل شيئا. انتظرها تبتعد. قالت « كنت أظن أن شجرة التوت تمشي». ضحكا معا وهي تمسح دموعها. صارت تلتقيه في غرفته كلما جاءت مناسبة وختلت البيوت من الناس. كانت تنام جواره. يتبادلان القبلات. ولا شيء غير القبلات والنظر أحياناً. تحفظ له ذلك بودّ شديد. صارت أخته صديقة مريم.

كان قفص حمام "فيصل" في سطح بيت خالته قريبا من بيت مريم. يراها على السطح من غير مشمر يغطي شعر رأسها. يحمل حمامة في يده ويلوح بها لها. يطلقها فترفع مريم رأسها تتابع طيرانها وهو مشغول بالنظر إلى عنقها وشعر رأسها.

لم يكمل فيصل تعليمه المدرسي. عمل مبكراً في شؤون الكهرباء. اشترى سيارة "فولكس ويجن" صغيرة تضع



له مريم ورقة صغيرة فيها موعد لقائهما القادم. وبعد عام من عمله زوّجه أبوه بابنة خالته. جاءته مريم تبكي بعد إعلان خطبته في القرية قالت له « وأنا يا فيصل؟» فقال « أبي يريد ذلك لا أنا». كانت مريم في المرحلة الإعدادية. لم تصدق ذلك فسألت أخته:

– «هل يمكن غصب رجل على الزواج؟»

بعد حدث سرقة حمام زكريا جاءت الأخبار إلى مريم: فيصل يرقد في المستشفى. فيصل مصاب بالسرطان، وأنّ المرض تمكّن منه. راحت تزوره في غير مواعيد الزيارة فلم تستطع دخول غرفته. حاولت حبس دموعها ففشلت. دخلت فوجدته مصفر الوجه، نحيل الجسم، تساقط شعره. مدّت يدها تصافحه فلم يتركها. ظلا صامتين فترة يمنحان سيرتهما المكتوبة بلون التوت هدوء البستان. يمنحان الغربة بينهما فرصة جديدة لتضيع. يسمعان تكسّر أوراق اللوز اليابس تحت قدميهما الصغيرتين. قالت بلهجة كلّها حيويّة:

– أين الَحمام؟

ابتسم فيصل. ظل ينظر في وجهها قال:



– كنتُ كلما ذكرتكِ اشتريتُ حمامة.

قال ذلك بصوت مبحوح قطعته السعلات. ضغطتْ على يده وعلى شفتها العليا وسالت دموعها:

– إذا أعطاني الله عمراً جديداً سأبني قفصاً جديداً، وأشتري حمامات جديدة، وأسمي أجمل الحمامات باسمك حتى لو ملأ اسمك القفص كلّه.

–وتلوّح لي بالحمام ثمّ تطلقه فتستغل انشغالي بها وتنظر في رقبتي وصدري؟

– هههههه.. كيف عرفتِ؟

– هههه أنا مريم يا صبي الحمام.

– كنت أُطلق أجمل الحمامات لأشغلَ عينيك.

–كلما انشغلتْ عيناي تلفّت القلبُ إليك.

– تذكرين السطح الأوّل؟

– رأيتُكَ يومها تعبر سطوح المنازل نحوي مثل جنّي عَجِل، لا تُلهيه عجلتُه عن انتخاب خريطة قفزاته. لم يكن أحدٌ قادراً على أن يراك غيري، وغير الحمام. تشاغلتُ أنا بنشر الثياب الرطبة على الحبال، وبالغتُ في هزّ الحبل خشية أن يتجاوز الجنّي سطح بيت أبي. يا





جنّيّي الوسيم. تقابلنا بين حبلي الغسيل، ينظر كلّ واحد منا إلى الآخر بقلبين يضجان بالحبّ بين حبلين ساكنين. تبتسم فأبتسم، تصمت فأصمتُ، تضحك فأضحك.

– لم أضحك منذ عتابك الأخير. "تقطّع كلامه بالسعلات".

بعد زواج صبي الحمام بأسبوع خرجتْ مريم معه في سيارته الفولكس. توقفا عند البحر تعاتبه عتاباً شديداً وهي تبكي. وبّخته. حاول تقبيلها فحوّلت وجهها. عادت تحمل خيبات كثيرة. كانت تظن أنّه لا يمكن غصب الرجل على الزواج. كانت تظنّ أن الرجال يصبحون مخلصين بعد الزواج.

ظلت مريم منكسة القلب حتى المرحلة الثانوية. لم تكن تعرف أن عليها أن تتجاوز صبي الحمام حتى التقت بمعلّم الخطّ في جمعية الفنون. تراه عصراً مرتين في الأسبوع. يمسك يدها، يمرران القصب معاً بيسر على الورق فيسمعان صريره. كان يتعمد اختيار جمل التدريبات من شعر الغزل. أعطاها مرّةً قول الشاعر:

غيرَ أنّي بالهوى أعرفها　　وهي أيضاً بالهوى تعرفني



فلم تحسن خطّه، وهي التي بدأت تحسن الخطّ، وتحسن الخروج معه بعد كلّ درس تقريباً. لكنها لم تحسن اختيار أوقات محادثته بالهاتف، ونسيت أن في البيت جهازي هاتف لخطّ اتصال واحد. سمعت أمّها كلّ شيء فأوسعتها ضرباً وحرمتها من دروس الخطّ. ومنذ ذلك اليوم لم تلمس مريم القصب إكراماً لخلوتها مع معلم الخطّ. سجلت الخيبة الثانية في سيرتها بخطّ أنيق.

جاءت تزور قريبة لها في المستشفى فتعرَّفت على أخيها. تبادلا الإعجاب. تواعدا على الخروج. أخذها إلى أحراش النخيل بعيداً عن قريتها. هناك حاول اغتصابها. مزّق قميصها من الأمام فتطايرت أزرته. صفعته مرّات. حاول مرّة أخرى فلم يفلح. تألمت كثيراً.

عادتْ لجمعية الفنون لكن عن طريق أختها هذه المرّة. فالرسّام الوسيم ينجز كتاباً مشتركاً مع أختها عن زخارف الحناء وتاريخه. فلما أُنجز الكتاب بدأه بإهداء غامض. عرفت مريم أن المقصود به هي وليست أختها الكبرى. صارت بينهما مراسلات حتى سمعت



أختها تقول عنه إنّه صاحب مغامرات نسائية في مرسمه الخاص، فقررت تركه، فمرض وساءت حالته الصحية.

ولكثرة ما روته صديقة المدرسة والحيّ عنها وعن صفاتها لأهل بيتها صار خال صديقتها معجباً بها. كانوا يسمونها «مريم يا ملاك». تعلّقت به فعشقها. كان رجل المرحلة الأخيرة من المدرسة. الصف التوجيهي. أحبتها العائلة حتى الجدة الكبرى تنهال عليها بالقبلات كلما جاءت برفقة صديقتها بمريولها الأزرق الفاتن. صار مؤكدا أنّها له لا لغيره. وعندما يحدث ذلك لا يمنع الأهل خلوة الحبيبين في أيّ مكان. وكلما اختلت به وأغلق باب غرفته تظلّ صديقتها تنتظر أن تروي لها كلّ ما حدث. مريم تروي وصديقتها تضحك. تبلع ريقها أحيانا «الله ينحرك يا خالي.. حار». وإذا ما تمنّعت مريم عن الكلام تنهال عليها بالضرب والعض فتستسلم وتروي:

– « مفتون هو بالمريول الأزرق. في كلّ مرّة نختلي فيها يطلب مني أن أحمل حقيبتي وأمشي أمامه بلا حجاب





بعد أن أفتح أزرة صدري. ليس أكثر من ذلك»

تقفز صديقتها فوقها « بس هذا ياالحمارة؟» فيعلو ضحكهما. لا تنفكّ عن مريم حتى تروي لها كلّ شيء. علامة صدق مريم لدى صديقتها: حلاوة المشهد، وفحولة خالها، والبرود الذي يدخلها بعد انتهاء الرواية.

في الأسبوع الثاني من الجامعة صارت مريم لا تشتاق إليه كثيراً. لم تعد تلتقي خال صديقتها إلا نادراً. حدث كلام كثير: إنّها لن تتزوج من شرطي، فقال أبو صديقتها:

– الآن وبعد أن معمص جسدها في الغرفة مرّات؟ هذا غير صحيح؟ هل الناس لعبة؟»

توسّل الشرطي إليها وقبّل قدمها أمام صديقتها فلم ترضَ. تراجعت إلى الخلف. سحبت قدمها. انتهى كلّ شيء.

تروي صديقتها « كانت مريم تجلس جوار خالي أمام العائلة جلسة العاشقين من المتزوجين. تمازحه أمامنا ويمازحها. يطعمها وتطعمه. لم أرَ عاشقين يشبهانهما



إلا في حمام جارنا. تخرج معنا في سيارة خالي الفولكس كلّ عصر جمعة للتنزّه. في إحدى المرّات كانت مريم تجلس في وسط المقعد الخلفي. داس خالي على فرامل السيارة فجأة فدخلنا الخوف. دار إلى الخلف ومرّر جسده بين المقعدين الأماميين حضن مريم طويلاً و لم يقل كلمة واحدة. رأيت لمعان عيون مريم فشددت على يدها فابتسمت. مازال يلتفت كلما ذُكر عليه اسم مريم، ولا يبالي بنقمة زوجته».

في الجامعة صارت حذرة في علاقاتها مع الشباب. لذا لم ينتهِ موعد تسجيل المقررات للسنة الجديدة دون تسجيل اسم تلميذها المفضل في الحياة الجديدة بلمحة. ليس وسيماً لكنّه يملك عينين واسعتين، شعراً ناعماً، يجلس عند مدخل المكتبة، ولا يملّ النظر إليها. صار بينهما كلام. لم يُخفِ الشاب علاقته بها عن عائلته. صارت تزوره في البيت وتجالس أختيه. تفضل شاي الحليب الساخن، وحضنه الدافئ. لكنّها لا تستقر وهو لا يتحرك. تعشق ممازحة الطلاب ولا تترك أحداً يستقر. وفي صباح جامعي أنهتْ كلّ شيء بينهما بسرعة. كانت





المفاجأة كبيرة عنده لا عندها. تمّ حذف المقرر الجديد. خفّت مريم واستخفّت.

خَلَفَ الشاب الجامعي المكسور شابٌ آخر لم يبقَ معها أكثر من زمن قبلة قلقة جداً بين رفوف كتب الجامعة. وظيفة الكتب الكشف لا الستر. كانا يلتقيان عند رفوف الكتب الأجنبية. هنا لا أحد يأتي لتصفّح الكتب إلا نادراً. صار يأتي وحده كلّ يوم.



كانت مريم بارعة في وضع النعوت. اقترب منها شاب في الجامعة. صار يجلس جوارها. كتبت له مرّة كلمة على الطاولة فتحولت جداراً لمراسلاتهما. وليس كلمة «الحبّ» من هذه المراسلات. كان إذا رآها لا يحوّل وجهه عنها، فنعتته بـ «سوبر غلو» لكن هذا السوبر غلو لم تدعه مريم يلصق جيداً فيها. أبطلت سوبر غلويته فسقط. بعد خطبتها من«عباس» تشاجر صاحب النعت معها قال:

– ألا تعرفين أنّي أحبّك؟

اشتركت مع شاب في تقريرين لمادة مقرر اللغة الإنجليزية فتعلّق بها. صارا يجلسان معا على طاولة في مقهى





الجامعة. يحلو اللقاء قبل مجيء باصات مغادرة الجامعة. تَعِبان في آخر اليوم رقّ صوتهما وفتر جسدهما. وما بقي من الطاقة لا يكفي لما في العيون. انطفأت العيون. تأزم صبي التقارير. طلب منها أن يصبح صديقا لها فوافقت بشدّة، فالصداقة لا تغلق العودة لكنها تغلق الجنس. هي لمس بدون جنس. الصداقة علاقة على حافة أمل الحبّ. حليب منزوع الدسم. صارت تناديه: يا صديقي، ويناديها: يا صديقتي. لم يصمد ذلك كثيرا فنادها مرّة: «يا صديقتي أحبّك» فلم تناديه بشيء.

في السنة الثانية تقدّم أستاذ مادة العلوم «عباس» لخطبتها وتمّت الخطبة. كانت تعرفه وتلتقي به في سيارته. كثيراً ما تبادلا القُبل. حدثت نقلة كبيرة في شكلها ولباسها لا تحدث إلاّ في النساء المخطوبات. لم تعد تلبس عباءتها إلا حين عودتها إلى البيت. لمح صبيُّ التقارير كلّ ذلك فدخله انكسار كبير.

بدا لها الرجال لُعَبا من عشق، لا تستطيع السير ما لم تشبع عاطفتها بتحريكها. كانت تردد دائما «لا أقوى على الحركة بلا حبّ رجل». لم يمضِ على زواجها كثيراً





حتى دخلها يأسٌ كبير. لم يكن مهماً أن ينام جوارها رجل، أن يملأ الضفة الأخرى من السرير ما لم يستطع أن يعبر بها السرير الأبيض إلى غيمة من الحواس، لا تفتر، لا تستقرّ في مكان، لا يكون لها شكل واحد، ولا ثقل فيها غير ثقل العين. فهي امرأة لا تعود للرجل الواحد مرتين.




روح

الله معك. «قالت مريم تودّع عباس».

يسافر ليخون. تصبح لجسده بعد كل خيانة رائحة. لا يفوت على مريم ذلك. تعرف هذه الرائحة ولن تحتاج إلى وقت طويل لتمييزها غير المسافة بين أنفها ودمعة عينيها. يدخل عندهن ويخرج وجسده ليس واحداً. غير أن الرائحة لا تكفي دليلا، ولا فتور جسده في السرير، ولا سكينة شهوته عندما تتعرى له تحت اللحاف. تشعر بعودته فتختبئ خلف باب غرفة نومها بقميص قصير أحمر شفاف في كامل رغبتها وزينتها فيسألها: ماذا تفعلين هنا؟ ثمّ ينام. هذا أيضا ليس دليلاً. في كلّ مرّة تشمّ الرائحة نفسها. من أين تـأتي الرائحة؟

بعد سفر عباس بثلاثة أيام شمّت الرائحة نفسها في غرفة نومها. في بعض الاعتقادات الهندية يطير مَنيٌّ الرجل على ورق الأشجار إلى زوجته البعيدة عنه فتحمل، وتنجب أطفالا له يحملون اسمه. هي ليست هندية، والرائحة التي تشمّها لا تشبه رائحة مَنيِّ الرجال لكنّها قريبة من رائحة طلع النخيل، وليست هي. مريم



لا تظن أنّها تتوهم. مريم ترى.

عند الساعة الثانية عشر بعد منتصف الليل قررت مريم النظر في محتويات حقيبة سفر عباس القديمة. كانت مقفلة. أقفال حقائب السفر لا تستعصي على الفتح. قلّبت محتوياتها. أوراق، أرصدة شراء، مجلات قديمة ، ظروف محلات تظهير الصور الفوتوغرافية ولا صور فيها. لا شيء مريب. راحت تنظر في سلبيات الصور. كم تعشق ذلك. تعشق نقائض اللون: الأسود يصبح أبيض، والأبيض أسود. العيون تُشبه عيون الساحرة. الأزمنة تتبادل موقعها. اللعبة اللذيذة عند مريم: أن تتخيل الصورة بألوانها. كانت تخفي صور مراسم خطبتها، وتنظر في سلبيات الصور وتحدد ألوان الفساتين والمكياج في الوجوه، ولون الشعر، والأحذية فإذا ما انتهت من الصورة كشفت الصورة. فإذا ضحكت يعني أنّ أكثر ما توقعته صحيحاً. و كثيرا ما كانت تضحك. لا أحد يجاريها في هذه اللعبة في بيت أبيها، ولا حتى أختها المتخصصة في تصوير «الإكس ري» في المستشفى.





كان عباس يريها صور سفره لكن السلبيات هنا أضعاف الصور المطبوعة. ترفع السلبيات في وجه المصباح وتنظر. هذا عباس في السوق، في التاكسي، في المطعم، في الحديقة، في الشارع، في الفندق، في بهو الفندق، في غرفته في الفندق، في السرير، في... في ... في السرير عاري الجسد بين فتاتين عاريتين. وقفت مريم مذهولة قرّبت السلبيات من المصابيح أكثر.. نعم ثلاثة أجساد عارية على السرير وهذا هو. وجهه غائب. وجهه مشغول. لكن هذا جسده. تعرف مريم جسده جيداً وهو لا يعرفها حتى يرى وجهها. راحت تبحث فوجدت صوراً كثيرة. هذه الفتاة التي يمسك يدها من الحي المجاور تعرفها جيداً. الصور كثيرة .. نساء.. نساء.. نساء..

سقطت على الأرض. منذ ذلك اليوم والصور في كل مكان في البيت. بكت كثيراً. رفعت الهاتف واتصلت بصديقه الوفي ورفيق سفره «جاسم» أن يحضر حالاً. فلما دخل رفعت له مريم السلبيات وطلبت منه النظر فقال "إنّها سلبيات صغيرة وهي غير واضحة". أخذتها

منه مريم في ضيق وتأفف أوضحتها له بالكلام الكثير.

الصورة تحتاج إلى الكلام:

– كيف تسمح له أن يفعل مثل هذا؟ كنت تقول لي «زوجة أخي» وأنّ لي معزة خاصّة عندك؟ أين هي؟

– والله العظيم لا أعرف شيئاً عمّا في هذه الصور.

قال جاسم ذلك وتغيّر صوته كأنّه يودّ أن يبكي. جلس جوارها صامتين فترة. ظلّت مريم لا تشتهي الأكل والشرب حتى عاد من سفره. حاول تقبيلها مثل كلّ مرّة فحوّلت وجهها عنه. قالت:

– عندي رشح. أخشى عليك العدوى.

– كأنّ بك شيء.. والرشح ليس هو السبب؟

في المساء أعدت مريم العشاء و لم تأكل شيئاً، سألته:

– عندما تسافر هل أكون معك؟

– أكيد عمري.

– طيب ماذا تفعل عندما تسافر؟ كيف تقضي وقتك؟

– ماذا تقصدين؟

بدأت مريم تبكي.. وضعت في يده سلبيات الصور. أجلسته تصفحتْ معه الصور تباعاً:







– هل هذا الذي أستحقه منك؟ «تبكي».

لأوّل مرة ينكّس عباس رأسه أمام مريم. لم يحدث هذا من قبل:

– لماذا تفعل هكذا؟ فتحت لك جسدي كله. أفعل ما لا تفعل النساء هنا لإخوانك؟ اذهبْ واسألهم ماذا تفعل زوجاتهم لهم ثمّ انظر. الأمراض.. أنت تنقل لي الأمراض..كيف تفعل مثل هذا؟

قام يعدم الصور والسلبيات أمامها فقالت:

– وماذا عن الصور في داخلي كيف ستعدمها؟ في فترة الخطوبة كنت تضربني عندما تعرف أن شاباً ما يعرفني، أو يحييني وأنت معي.

ظلت القصة بين الثلاثة ونسخة أخرى من الصور عند جاسم.





تلتفتُ
إليه فتضيئه. يدور المكان فيه كلّما حضنها. يحومُ في فمه الكلام، تماماً مثلما يحضنها ويُحَوِّمُ بها. يدور بها، ترفع رجليها فيستند فخذاها على فخذيه. هذا هو قانون الدوران حول المحور، والانجذاب نحو نقطة المركز لا الذي شرحه لنا أستاذ الميكانيكا مصطفى كمال في الثانوية. ساعتها لم نفهمه. وكلّما حَوَّمَ بها غار وجهها في رقبته فتشمّ رائحة الحمام. تضحك فتضجُّ عنقُه بضحكتها. كان زكريا صاحب الحمام . كانت مريم صاحبة الكلام.

في جلسات العائلة تُومئ إليه فيهيج فيتعطل سمعه. تطورت بينهما الإيماءاتُ وعاد لا يفهمها أحد. عيونه عليها، على كلّ حركة. مربو الحمام يقظون، دقيقو الملاحظة قلّما تفوتهم الإشارة. وفاطمة لا ترفع رأسها إلا نادراً. وحادثة صور زكريا أضعفت ثقتها حتى في الكلام. تخشى أن تنال إحداهن منها بها. عارف بدأ يرى لكن لا يمكنه الجزم. أميرة متورطة غير قادرة على انتظار انتهاء الجلسة لتفهم. لم تعد مريم تنفر من زكريا. تقابله بالابتسامات. تتودد إليه بكلام يفيض بالأنوثة.



ثمّة ما يجعلها لا تخشى من شيء. تنزل في صالة البيت كلما تأكد لها أن زكريا حاضر فيها. صارت مكالماتها الهاتفية معه غير جافة، غير قصيرة. تذكر قصة الصور لزوجها عباس في كل المواقف مهما كانت.

صارت مريم تأخذ زينتها، تتعطر عند النوم وتبالغ. تدير إليه ظهرها ولا تحرك ساكناً. يصخّ السرير فيسمع تكتمها على بكائها. يحضنها من الخلف فتظل عيناها مفتوحتين في جسد ميّت. قام من السرير وأحضر القرآن:

–بماذا ستحلف؟ بأنّك لم تنم مع امرأة غيري؟ أم بأنّي كنت أتركك تغادرني مثقلا بشهوتك؟ أم بأنّي لم أكن أشبعك مرّات في اليوم الواحد؟ أم بأن جسدي لم يكن حاضراً كلّه لك ساعة نلتقي ولا شيء منه في مكان آخر؟ تذكر.. أنا علّمتك المتعة. دللتك على أسرار جسد المرأة ومفاتيح اللذة. كنت أطارد فيك وميض الرغبة وأرعاه لأجمعه بين فخذيك، و لم تكن – يا عباس– تحسن غير الانتصاب. ومَنْ لا يحسن ذلك. لكن مَنْ يحسن أن يملأه بالحسّ؟ وكنتَ إذا هِجتَ تصبح كأبيك: مركبٌ





يحاول ملاحوه أن لا يحتكّ بالرصيف كثيرا، يُلقي حمولته كلّها، يغادر وينسى. لا يفعل أكثر من ذلك حتى يموت. هل تشعر المراكب بالمتعة؟ والآن.. تسافر لتخون؟ على أيّ شيء ستحلف؟ لا فائدة أنت عباس.

بعدها لم يحسن «عباس» إخفاء علاقاته. كلما أخفى فضح. لم يستطع أن يخفي لقاءً واحداً ولو كان قصيراً. يعود فتخبره من أين أتى. يتهمها بالتجسس فتسخر. تقترب منه تضع يدها على موضع في قميصه:

– هنا عطر امرأة.

تقول ذلك فيثور ويهددها بالضرب إن استمرت في استفزازه. يتهمها بالتهور وعدم تقديره واحترامه، وأنّها امرأة خيالات.

– لكني أشمّ عطرها بقوة. يبدو أنّها حضنتك بقوة أيضاً.

– خيالاتك واسعة جداً.

– الخيانات لا تسعَ الخيالات.. أعطني مبرراً واحداً يا عباس بعدها سأتركك تفعل كلّ شيء حتى لو كان في الشقّة هنا، وعلى هذا السرير يا حقير.







– الحقير أنا؟ هل نسيتِ كنتِ تقبلينني قبل الخطوبة؟ فتحتِ لي صدرك مرّات؟ أقول..؟ لا فتاة تقترف ذلك؟

– كنت أحبّك.

– هههه تحبيني؟. . والآن؟

– أحتقرك.

دفعها إلى الوراء فكادت تسقط. لم تشتمه من قبل وكانت تخاف محاورته، وتخاف حتى من صمته. فمن أين أتت كلّ هذه الجرأة إلى مريم؟

رأى زكريا صمتها في جلسات العائلة وأنها لم تعد تومئ إليه بشيء. فقد تواصلها وحيويتها وابتساماتها. قال بعد وجبة عشاء:

– في عالم الحمام لا يوجد شيء اسمه غضب. ربّما تموت الحمامة من الحزن على فراخها لكنها لا تعرف شيئا اسمه غضب. إذا ما انطفأ إعجاب الحمامة بالحمامة تركتها إلى الأبد وارتاحت. العالم كله حمام.

– إيه.. الحمام خائن وليس عنده عهد ولا غيرة أصلاً. وليس له علاقة بالسلام ولا علاقة بالحرب. لكن ربّما





بالحرب «قال عارف».

– كيف ما عنده عهد؟ ثمّ أنّك لم تربِ حماماً قطّ.

«قالت أميرة».

– لا .. أنا ربيت الحمام عندما كنت صغيراً.. كنت أرى الذكر يخون حمامته أمامها. وهي ترى كلّ شيء ولا تغضب ولا تستاء ولا تفارقه.. أين الغيرة؟ ورأيت الذكر يمرّ جوار حمامة كانت زوجته من قبل، وأنجب منها حماماً كثيراً فلا يتلفت إليها، وكأنه لا يعرفها أبداً.. فهل هذا هو العهد؟. قال عارف.

رفعت مريم رأسها. أيقظها الحوار الساخن الصريح. قالت تخاطب «عارف»:

– الحمام يهبكَ ما فيك.

– يالله .. تحدثت المتفلسفة. «قالت أميرة فلم تعرها مريم اهتماماً».

– لا يامريم .. الحمام يهبك ما فيه. "قال عارف".

– الحمام لا يشعر أنّه يخون. هذه فطرته. ولا يرى أنّه ناكراً للعهد للسبب نفسه. لا يحدث ذلك في عالم الحمام بعلم. لا يوجد شيء اسمه خيانة لكننا نرى ما فينا





فيه. الحمام يقول لنا ما فينا بما ليس فيه. "قال زكريا"

– ما فهمنا شيئاً؟! قالت أميرة.

– مريم تقصد أنّ الحمامة لا تشعر بالذنب. أنا أقول ما دامت الحمامة تشعر بالحزن إذن هي تشعر بالذنب. قال زكريا.

– يالله.. زادها عمى. عمّا تتحدثون؟ قالت أميرة.

– أمّي قالت من قبل: رأسك رأس حمامة يا أميرة. «قالت أخت زكريا الصغيرة.»

– مادامت الحمامة تتعلّم بالتدرّج وتصبح لديها خبرة متراكمة إذن هي تشعر. لا يكون الشعور بالحبّ إلا عندما يتراكم الإعجاب، ويضع المانعون بين المحبين الحجاب.

قالت مريم تلك العبارة بصوت هادئ وانشغل بالها بسرعة. سرحت.. لا يستطيع تحويل عينيه عنها. تمكنتْ. نسي الجالسين. كان يضيع كلّه كما ضاع حمامه في السماء. ليس مهما لديه بعد ذلك عاد إليه حمامه أم اختفى إلى الأبد. كل المتعة في الضياع، في التحوّل إلى نقطة في السماء. كم يكره الحمامة عندما لا تعود إليه





بشكل عمودي؟

تنحنح عارف فتكسرت الخيالات. استأذنت مريم. غادرت. تفرّق الجمع. غادروا البيت لحضور مناسبة دينية في الحيّ إلا مريم. الشقق مفتوحة الأبواب وخالية. يخشى مربو الحمام فساد نسل بعض الحمام النادر؛ لذا يتأكدون من قفل أبواب المحاكر جيدا، ولا يجعلون الحمام يختلط إلا ساعة الطيران. لم يعد الإنسان نادراً.

أخبر زكريا أصدقاءه أنّه نسي باب القفص الصغير مفتوحاً، وأنّه يخشى على حماماته من قطّ صلاح:

– القطّ ابن الكلب؟ سأل أحد الأصدقاء.

–إيه..

عاد في سرعة حمام الزاجل. لم يرَ وجوه الذين يعرفهم، ولو تعمد أحدهم إيقافه لأحدث فيه عاهة. سرت حرارة من صدره إلى قدميه. وجع في الحلق. أذناه جمرتا نار. اتسع منخراه وصار نفسه ساخناً. ليس مستعداً لأيّة احباطات من أيّ نوع في البيت؛ لذا دخله بأمنيته لا يريد سواها: أن يكون البيت خالياً عدا مريم.

فتح أبواب الشقق باباً باباً. كلما فتح بابا نادى على



مَنْ فيها فإذا لم يجبه أحدٌ زاد الوجع في الحلق ونشف ريقه أكثر. الآن.. ليس في البيت أحد غير أصوات حركة في شقّة أخيه عباس. تراجع إلى قفصي حماماته النائمات. لم يتوقف عندهما لحظة. ذكر الحمام لا يتزاوج مع حمامته ليلاً. الإنسان ينتظر الظلام. كان ينتظر الظلام، صار ينتظر الخلوة.

عاد إلى شقّة مريم.. دفع الباب في خفّة لا يمكن صناعتها. دخل بخفّة قطّ وشهوة ذكر حمام ينتظر حرية حمامته من يدي مالكها. قبل الحرية غالبا ما يخطط الإنسان للقاء إنسان يشتهيه. تفاجأت مريم الواقفة بدخوله الخفيف لكنها لم تفزع، ولم تنزعج. تراجعت قليلاً. لم تكن ترتدي غير ثوب قطني أسود لا شيء تحته. حضنها بقوّة فقاومته في البداية قليلاً. هو يعرف أنّ لذة الحمام في الملاطفة، فأرخى ذراعيه قليلاً وبدأ يتحسس جسدها. صار يمسح على جناحيها وظهرها حتى طالت يداه ردفيها فلم تعترض. قبّلها قبلاتٍ خفيفة في وجنتيها ورقبتها وأذنيها. تمدّد واتسع كلّ شيء فيه: عيناه، شفتاه، لسانه، مسام عرقه، منخراه،





شعر بدنه، رائحته، امتزج ريقهما:

– أحبك مريم..

لم يزد على ذلك فرأى منها ما لم يره في عالمي النساء والحمام. شعر أنّ لحظة التذوق طويلة جداً. كلّ حالة تذوق جديدة تبدأ قبل انتهاء الحالة السابقة. لم يعرف ذلك من قبل: أن فترة التذوق لا تنتهي. أليس زمن التذوق قصيراً جداً؟ بدأ لسانها يتحسس زوايا فمه فكان يتعلم ويحاكي فعلها بلسانه في آن. تذكر الماء يسيل من نهايات مناقير حماماته. يداه طاقتا حسّ على ردفيها الممتلئين النديّين. باغتها برفع ثوبها الخفيف فالتصقت به أكثر ليس لكي لا يرى لكن لرّج قانون التذوق. تراجعت إلى الوراء. قادته نحو مساند قطنية طويلة وليس نحو السرير القريب جداً. فلما استقر ظهرها تعرّى. صدر ممتلئ بالريش تماماً كما حلمت به ذات مرّة. مرر لسانه على جسدها كلّه، لم يترك موضعاً لم يمرّ به. تريد الكلام ولا تستطيع. تقول الكلام لكن الصوت لا يخرج. فلما وصل أذنها قال:

– أحب طعم جسدك.. أحب رائحتك.. أحبّ كل





شيء فيك حتى رائحة عرقك.

– فيّ مثلكَ حمامة.

أجلسها في حضنه، صار يشدّها وهي تحاول منعه وترجوه بعينين شبه مغمضتين. مالت برأسها كلّه للوراء فتدلى شعرها، انفتح عنقها، واشتدّ صدرها. ملأ فمه به وصار يعضّه عضّاً خفيفاً بشفتيه وأسنانه حتى ارتخى جسدها واطمأنت. فَتح حلاوتها. علت منها صيحة. صفعته برفقٍ على خده فاهتز يضحك. جاءته قوة لا يعلم مصادرها فصار يحركها حمامةً على كفّه. مررت يدها على جبينها المتعرّق وغرستها في شعرها وشدّته والرعشة لا تبرح شفتيها. هاجا معاً. طارا معاً. فلما انتهيا دفن رأسه في صدرها وظل في حضنها حتى هدءا قليلاً. أعانته ليلبس ثيابه فلمحت فيه شروداً. قالت:



– اسمعْ.. إياكَ أن تشعر بالذنب.

لم يقل كلمة واحدة. حضنته، قبلته في خدّه فغادر. دخلها خوف لم يستمر كثيراً. نظرت في صورة بورتريه زوجها عباس المعلقة فوق السرير جهة الرأس بشيء من العناد قالت:





– الفراش فراشك يا حقير.

في اليوم الثاني التقيا عند مطبخ العائلة فدست ورقة في يده، قرأها في الحمّام : «سأكون وحدي بعد الغروب. تعال نتحدث.. نتحدث فقط» فعاد له وجع الحلق. حين دخل عليها وجدها في كامل زينتها. ترتدي قميص نوم حريري بصلي اللون. تلقفته بشفتيها، ابتعدت عنه. أشارت إليه: «انتظر قليلا». عادت تحمل علبة شوكلاته سائلة. مدّ شفتيه ليقبلها فابتعدت. خلعت القميص. فتحت علبة الشوكلاته. صارت تسكبها أعلى نهر صدرها فتسيل بطيئا تتجمع نهراً من شوكلاته. جنّ زكريا حتى غارت عيناه. أشارت إليه ناشرةً ذراعيها جناحي حمامة: «يالله طرْ نحوي» فطار نحوها ولم يحوّل عينيه عن الشوكلاته الذي بدأ بعضها يسيل رقيقا جدا إلى بطنها. حطّ يلعق الشوكلاته بلسانه:

– لا تستعجل. قالت له مريم.

فلما غمر وجهه شمّت فيه مريم رائحة حوّام. ثلاث روائح تتنافس في روح مريم: الحمام، الشوكلاته، وجسد زكريا. فلما اجتمعت الروائح الثلاث في رائحة



فريدة، قد لا تشمها مرّة أخرى، قالت له:

– أحبّك.

ارتفع يقبل نحرها فارتفعت الشوكلاته معه، فتحوّل إلى قطعة شوكلاته شهيّة. صار جسدا بنكهة الشوكلاته. عرف زكريا استعمالات جديدة للشوكلاته. استعمالات لذيذة. لم يكن في باله يوماً أن للشوكلاته سعة المتعة، سعة الخيال، وأن الروائح كائنات حيّة تطير.

فلما انتهيا برد كلّ شيء إلا الرائحة الفريدة. وقفت تودِّعه تغطِّي جسدها بمشمرها الأخضر. ولا شيء غيره. عادت تنظر في صوره. لم تقل شيئاً. أظنّ أنها لم تقل شيئاً.







وضعوا حمامَ زكريا في أكياسٍ من الخيش وغادروا...

بعد عشاء اليوم التالي سرد زكريا قصة سرقة حمامه. قال إنّها «سرقة منظمة» اعتمدت على سيرة حمامه بين جماعات الحمام، ومراقبة البيت مدّة طويلة. قال:

– لديهم معلومات عن كلّ شيء في البيت. كأنّهم من أهل البيت. وضعوا الحمام المسروق في أكياس من الخيش، كسروا البيض، معصوا الفروخ الصغيرة. عرفت السارق الكلب. صديق قديم جاء يخبرني عن مكان حمامي. عرفت اسم السارق وشكله. كان مشهوراً في سوق الأربعاء، يبيع الحمام غالي الثمن بأسعار تنافسية. لا يبقى في السوق أكثر من ساعة واحدة. قصدت بيته، مررت على مجموعة شباب فيهم السارق فتجاهلتهم. وصلت إلى البيت خرجت لي امرأة عجوز عرفت أنها أمّه. سألتني:

–أنت من؟

–زكريا..

– أي زكريا؟ ما غرضك؟



– حمامي فوق.. ولدكم أخذ حمامي.

– أخذها؟ قصدك سرقها؟

– الله يهديه.. إيه.

– أف.. هذه عادته، كلّ يوم مصيبة من تحت رأسه. سوَّد الله وجهه ألا يستحي؟ اسمع يا ولدي.. اركب السطح وخذْ حمامك بسرعة.. لكن لا تتأخر.

في سطح البيت رأيتُ قفصاً عظيماً فيه حمام كثير.. في داخله أقفاص صغيرة كثيرة، وجدت حمامي في واحد منها. وضعتها في كيس من خيش ونزلت. وجدت العجوز عند الباب تنتظر:

– وجدتها.. أخذتها؟

– إيه.. رحم الله والديك.

– سامحنا يا ولدي...

عدت من طريق آخر. كنت أعرف حتى لو رآني لن يسألني عن أيّ شيء.

– هل وجدت الحمام كلّه؟ قالت مريم.

– لا.. ما كان الحمام كلـه.. بعضه.. بقيت عشر حمامات تقريبا. لا تخافي لا شيء يغيب كثيراً عن هذا البيت.





عرفت مريم أن «حوّام» لم تكن في الحمام العائد فسكنت، ودخلها حزن كأنها للتو فقدتها. يُصيبها اكتئابٌ كلما غاب عنها ما تعلقت به. فكيف إذا كان غيابه حدث. وكيف إذا كان الغائب «حوّام». غادرت الجلسة فغادرت عينا زكريا خلفها.

أصبح زكريا ينظّم متعته مع مريم. لم تعد زياراته لها مفاجأة. تتحيّن الفرصة وتزوره في شقته فتكون المفاجأة. ويصبح شكل اللقاء غير. كانت ترفض أن يأخذها إلى غرفة نومه. حاول مرّة –وهي في سكرة اللذة– أخذها إلى سريره فالتفتْ:

– لا..

– ما المانع؟

– ألا تشمّ رائحة زوجتك؟

– أي رائحة أي بطيخ؟

– أنا أشمّها فلا أرتاح.. في الخلوة أكره رائحة أي امرأة غيري. لا تكون خلوة. عندما يتقارب الزوجان من بعضهما البعض مدّة طويلة تُصبح لهما رائحة واحدة لا تتغيّر ماداما قريبين. رائحة المكان من رائحتهما. هنا..



في هذا البيت رائحة المرأة لا تشبه رائحة الرجل حتى الممات.

– تعالي

– لا .. خلاص.. لدي رغبة في المغادرة..

– لكننا لم...

– مع السلامة.

حاول منعها فاستاءت. رأى الغضب كلّه في عينيها فأفسح لها الطريق.

يستفزها في جلسات الأسرة فلا تلتفت. رواياته عن عودة «حوّام» ثمّ غيابها عادت لا تغريها. لا شيء يغريها على البقاء في الجلسات. لا حديث النساء وغمزاتهن، ولا فضح الرجال للرجال، لا كشف الرجال لأسرار النساء، لا نيل الأم من الجميع، ولا الحديث عن أطفال العائلة. وماذا تفعل بالأطفال؟ لم يعد ذلك في نيتها. لاحظ عارف تغيرات مزاجها فغمزها بأغنية فيروز:

– « ما في حدا لا تندهي ما في حدا..»

فأكملت الأغنية أمام الجميع:

– « ما في حدا لاتندهي مافي حدا.

بابون امسكر والعشب غطا الدراج..

ياريت ضوينا الأنديل العتيق يمكن حدا كان اهتدا..

ياريتني شجرة على مفرق طريق وجيرانها غير السما

و غير المدى

ما في حدا..»

– الله .. الله...

صفق لها عارف. تغامزت النساء. وعدها عارف أن يغني لها في الجلسة القادمة ويعزف لها على العود.

– الله.. ما في حدا يعزف لنا على العود. قال زكريا.

بدأتْ مريم تبتسم. عاد حضورها. لاحظتْ نظرات عارف المكثّفة نحوها فدخلها سرور كثير. عرضت عليه أن يغني في جلسة خاصة في حفل خطبة أخيها «إبراهيم» قريباً. فلمحت في عينيه نظرة رضى فابتسمت. .

صار زكريا يزورها فترفض خلع ملابسها. بدت تستمتع بتعذيبه. ترى كل ذلك في عينيه وفي اضطراب حركاته. ووحشيته ووحشته. لم تعد تمكّنه من شفيتها أيضا. صار عنيفاً. حاول مرّة تمزيق ثيابها فهددته بالصراخ:



– أنا أحبك مريم.. «مستغرباً»

– وأنا زوجة أخيك.. عرفت؟

صار يُقبل فتصدّ. يهجم فتقاوم. ساء مزاجها مع الجميع، وقلّت جلساتها في العائلة فقالت النساء إنّها حامل، وأن هذا هو مزاج الحامل في أوّل الحمل. زارتها عمتها أم عبد الله في شقتها فكذبت مريم الخبر:

– أنا لست حاملاً.. وان شاء الله لن أحمل.

– استهدي بالله.. لا يربط الرجل بزوجته إلا الأطفال.

وجد زكريا مريم تشرب الشاي واقفةً عصراً في مطبخ العائلة. ألقى عليها السلام فلم يسمع ردّها. رآها تُسرع في شرب الشاي حتى احمّرت شفتاها. اقترب منها وهو يشير إليها بيديه أن اهدئي وأنه يريد الكلام لا غير. استغل انشغال يدها فانقض بشفتيه على شفتيها. يعرف زكريا وجهها وسلوك حركتها. فلما أطبق شفتيه انفتح فمها فسال ما بقي من الشاي في فمه. ابتعد وهو يتمطّق يخبرها عن لذة الشاي من فمها، وأنّ طعمه غير. وضعت يدها على فمها المُباغت. شعرت بذّل ولذة في آن.



عادت ضجّة الصور إلى البيت من جديد فاستعدت أميرة للمغادرة مرّة أخرى. لعنت الأم «كلب الصور»، وطلبت من مريم التدخل للمصالحة لكن أميرة مصرّة هذه المرّة على الانفصال. كانت المرأة أجنبية. هذه المرّة الأولى التي يشاهد فيها جميع أفراد العائلة الصور. لم يكترث عارف لذلك. قال إنّها جلسة عادية فيها كثيرون.

بدأت مساعي مريم هذه المرّة من «عارف». اعترف لمريم بما في الصور. قال إنها حفلة عابرة فيها كثيرون. لكنّه لا يذكر الشخص الذي صورهم تلك الليلة. اشتكى لها ما تفعله زوجته به. قال إنها لا تعتني بنفسها، وأنّه كان يطلب منها في كلّ فترة إزالة شعر العانة والإبطين والرجلين والوجه. إنّها تهمل شعر شاربها فيبدو واضحا كلما غسلت وجهها، وأنها لا تحضنه في السرير. شكى إلى مريم برودها غير المبرر، وأنّه كثيرا ما كان يسمع شخيرها وهو فوقها:

– نساء هذا البيت لم يتعلموا منكِ شيئاً؟

اكتفت مريم بالابتسامة. غادرته دون تحقيق أي تقدّم





في الموضوع.

في هذا البيت لا يحتاج المرء إلى ترتيب الخلوة. صارت شقّة عارف خالية طوال اليوم. سمعت مريم صوت عزفه على آلة العود وغناءه ذات مساء فاستأذنته في الدخول. جلست على كرسيّ خشبي تغطي شعرها بمشمرها وينسدل على جانبي الرأس. توقف عن العزف:

– هل تحبين الموسيقى فعلاً؟ قال عارف

– أموت في الموسيقى. قرأت عنها كثيراً.. عن تاريخها.. لا أتصور الحياة بدونها.. عندما تغيب معلمة الفصل أخرج في وسط الصف أغني. أحيانا أصعد على طاولة المعلمة وأرقص فيمتلىء الفصل بالحيوية. يدخل الحماس طالبتين فتخرجان ترقصان معي. أخلع حجابي الأبيض وأحزم به وسطي. أنسى أنّي في المدرسة. كانت الطالبات الهادئات يكتفين بالابتسامة وهذا في حدّ ذاته فتح.

– هي لا تهتم بالموسيقى. لا تفهم أو لا تريد أن تفهم.. ليس فيها حماس لعزفي. أعزفُ فتنام. صوت العود لا يبعث على النوم.. لا أعرف سبب نومها.. كنت أتمنى





أن تسمع عزفي مرةً واحدة فقط ليس أكثر.. في فترة الخطوبة كانت تمثل أنّها تستمع لعزفي وتستمتع. أعرف ذلك من قيامها السريع جداً قبل انتهاء العزف بقليل.

– ربّما اهتماماتها غير. لا تظلمها كثيراً

– اهتماماتها نقل الكلام عن نسوان البيت ليس أكثر. كانت تعجبني أما الآن فلا.. هي دقيقة في نقل ما في أجساد النساء وليس أكثر من ذلك. هذه هوايتها ومتعتها؟

– هل قالت لك شيئا عني؟

– ههههه.. ليس كثيراً

– والله لن أغضب.. خبرني.

– بصراحة.. دعينا منها الآن.

– أرجوك.

– قالت لي: لمريم شامة على شكل ريشة حمامة.. «قال وهو يشير إلى فخذها الأيسر»

– ههههه زوجتك قليلة أدب.. كان وشماً وليس شامة.. ما علينا.. متى تنوي مصالحتها وإعادتها؟

– لا أمل في عودتها.. أتعبتني.. أنا سعيد بدونها..







حريتي أكبر. لو كانت تُشبهك في شيء واحد فقط أعدتها..

– ما رأيك لو أنّي أحضرتها إليك.. أجعلها تشبهني؟

– انت ساحرة لكن سحرك لا يعمل في أمثال زوجتي.. أخشى أن يبطل وتصبحين مثلها..

–حرام عليك.. المرأة تتغيّر عندما تلتفت.

– هل رأيتِ؟ عندما تلتفت.. مرّت الآن خمس سنوات على زواجنا فمتي ستلتفت؟ سوف يلتفت عزرائيل إليّ قبلها. تغيير المرأة صعب جداً.

– بالعكس.. أيسر شيء، وأسرع شيء تغيير المرأة. هي الإنسان الذي يتغيّر. كلّ لحظة يمكن أن تصبح امرأة أخرى.

سوَّى جلسته. أشار إليها أنّ سوف يبدأ العزف. أبعدتْ ظهرها عن الكرسي وأقبلت عليه بوجهها تنتظر رنّة العود الأولى. بدأ يُدوزن العود. يشدّ أوتاره. يدير مراويسه. لم تغادره البهجة. دندن على العود فلما جهز توقف قليلاً. نظر إليها فابتسمت. بدأ يعزف. يحضن العود، فتحضنه مسحة حزن، يقلد الفنان أحمد الجميري





عندما يعزف العود يودّ لو يدخل فيه من أذنيه.. يحمرّ وجهه.. ينكمش أنفه. يتجمّع الصوت والنغم كلّه في عينيه. كم يهوى العود ولا يرضى أن يُحمل إليه. وإذا أصرّ شخص أن يحمله أوصاه بالرفق به. أليس العود «نبات صنعه الناس وحركوه، وصارت له نغمة ظاهرة ناطقة معبرة عما في أفكار النفوس»، كما يقول أخوان الصفا؟ أعطى عارف لمريم إشارة ببدء الغناء، فلم تتردد.

غنّيا معا:

«نصايف الليل

الناس عني لي غفت في وهدة الليل

نصايف الليل

.......»

انحسر مشمرها عن رأسها مرتين فأعادته، وفي المرّة الثالثة لم تلتفتْ إليه. رأتْ دمعة في عينيه يحاول حصرها في داخله. يصارعها لتبقى. كلما زاد حضور الموسيقى قلّت الإعاقة، واختلت نسبة التأليف التي بها نُحسن أن نرى. نُحسن أيضا أن نطّلع على أرواح الآخرين مهما بعدوا، غابوا، ومهما كانت جهة لغتهم وأصواتها.



تمكَّن النغمُ منه أكثر فصار يعزف من نوتات القلب. فلما انتهيا ظلا صامتين.

– سوف أغادر.. أتوقع مجيء عباس الآن..

– قلت لك صوتك غير عادي.. ارتحت معك.. هل تأتين غداً.. سيكون الغداء غداً خارج البيت. أنا نسيت مرحلة الغداء خارج البيت والتشرد. عندما كنت أبحث عن غداء لي ولأخوتي. لا أرغب في الذهاب.

لم يستطع عارف إكمال دراسته المدرسية بعد أن أهمل أبوه أمّه وإخوته الصغار. راح يعمل في شركة تنظيف وصيانة من أجل أخوته. يحكي في أيّة فرصة قصة ظلم أبيه لأمه وأخوته الصغار. يحكي عن شكل المعونات تأتي من بعض الجيران، ومن المؤسسات الخيرية بينما كانت أسرته الأولى تتنعم باهتمامه كلّه. تحدث عارف كثيراً عن هذا الهمّ فرقّت له مريم، وساندته معنوياً. تراه شخصاً لا يتكرر كثيراً.

– كنت أفكر فيك. كيف عشت مع أخوتك؟ كيف مررت بهم على عقبات هذه الحياة حتى كبروا؟ من أين عشت وعاشوا؟ لا بدّ أنّك تألمت كثيراً، وتألموا كثيراً.





– إيه .. أودّ أن أنسى هذا التاريخ. لم تعلقي على اقتراحي؟

– أنا أيضا وأنت تعرف لا أحبّ الغداء في بيوت الآخرين. هل سنغنّي أيضا؟

– كل ما تطلبين.. لكن سماعي لصوتك أهم من كل شيء.

صارا يجتمعان كلّما كانت الخلوة. يهذبان الروح على الإصغاء لروحيهما، ولمعرفة نسبة كلّ واحد في الآخر. كيف تتركب وتأتلف فيهما. كلما دخلتْ عليه الشقة وجدت عنده حبّاً، موسيقى، وعين لا تشبه العيون. صارت تقبّله عندما تغادر، فيبالغ في ضمّها إليه. وفي ليلة لم تكتفِ فيها بالغناء، قامت ترقص مثل نبتة ماء، تتغضّن، تتغصّن، تأخذ جهة الماء وشكله. أسدلتِ المشمر على وجهها كلّه. حجبتْ عينيها عنه، فاتسعَ خاطر الرقص فيها. لم يكنْ يعرف أنّها بارعةٌ في الرقص أيضاً. رفعتِ المشمر عن وجهها فانفتح له عن وجه جديد. أفردتْ ساعديها جناحين مثل حمامة وصلت نقطتها الأثيرة في سعة الفضاء. النقطة التي تُبقي





الحمامة فيها دون الحاجة إلى حركة جناح، دون الحاجة إلى طاقة حتى لو ظلّت اليوم كلّه. لم يكن زكريا قادراً على وضعها في هذه النقطة. بالغت في الرقص حتى دخلها ميلان إلى الأرض. تتغضن وتهبط في آن كأنّها تودّ لو تثقب الأرض. يتجّمع جسدها في داخل بطنها، ثمّ تقوم فلا يلمح الناظر ذلك لخفاء تدرّجه. حاول إيقاف العزف فلم تتوقف الموسيقى في داخلها. لم تلتفتْ. فجأة جلستْ على الأرض. توقّف عارف عن العزف. اقترب منها. الشعر يغطي وجهها. نَفَسٌ سريع. شفتان ترتعشان. مدّ يده يبعد الشعر فدخلها الفزع. حضنته واستلقت به على الأرض. بكت. قالت له بصوت هادئ:

– عندما كنت أرقص رأيتُ صوري كلّها.. كلّ صورة تُريني ما فيها فأمدّ نيتي لأُبقي ما أشاء وأحذف ما أشاء فتتبدل الصورة بعد انتهاء النيّة مباشرة. تنفتح صورةٌ أخرى فيحدث مثل الذي حدث في سابقتها. صور لا تنتهي. صور تخرج من صور. كأنها تتشابه وليس الأمر كذلك. رأيتُ كلّ شيء فيها. فلما فقدت الأمل رحت

أتتبع الصور لأرى أيّة صورة فيها أنا الآن فلم أستطع، والتي تظنّها صورتك الآن لا تفهمها، ولا تعرف كيف تركّبت. كأنّ الإنسان سلسلة صور يتخيّر منها ما يشاء. أو هكذا يظنّ أنّه اختار و لم يُختر له.

– تهلوسين؟

–لا.. لا تكون الهلوسة في نغم، موسيقى، أو طيران.. لو كنت أهلوس ما تعبت. «تبكي»

ظلّ رأساهما على الأرض كلّ واحد منهما ينظر في عيني الآخر. نزلت دمعته على الأرض. اقترب منها أكثر حتى صار وجهيهما غمامة. تجاوزت عيناهما قانون الرؤية. لا شيء في العيون، ولا إشارات. لا تُعرف النيّة إلا في العيون. تشابكتِ اليدان. وفي حركةٍ خاطفةٍ أسرع من نيّة مريم في صورها، ثبّتتْ مريم يد عارف اليسرى، ودفعت باليمني إلى الوراء حتى استقرّ كتفاه على الأرض. اعتلته، فلم يحرّك ساكنا غير اتساع عينيه، واتساع رؤيته. لم يكن نشاط مريم وحدها. كان نشاط الصور فيها. طاقة الصور كلها في آن واحد.

علت منها ضحكة فيها لياقة الحمام ساعة يطير نحو

نقطة استقراره في الفضاء. امتلأ المكان لياقةً حتى استقرّا. وصل هو قبلها بكثير. كانت تحمله، وتطير به. لا معنى للحبّ بدون طيران، بدون حمام.

في المساء سألتها عمتها عمّا فعلت في أمر عارف وأميرة فقالت:

– الموضوع معقّد عمتي.. يحتاج إلى وقت. سأهتم بالموضوع أكثر. غدا في المساء أذهب إلى أميرة.

شكرتها، دعت لها بالخير، و«نعتتها بـوردة البيت».





زكريا حمامةٌ مكسورةُ الجناح. عاد لا يرى في الحمام ما يبهجه كثيراً. قلّ تواجده معها مثلما خفّ حضوره في جلسات جماعة الحمام. وكان إذا حضر ظلّ ساكتاً حتى يغادرهم. سخر منه أحدهم:

– لم تعد تأتي، وإذا جئت تغيب؟

فالتفت إليه ولم يعقّب بكلمة واحدة. فلما غادر قال صلاح:

– ما أعرف.. لكنّه يشبه حمامة مكسورة الجناح لا تستطيع الطيران ولا حتى القفز.



– ربّما سرقة حماماته هو السبب. «قال باسم أصغر مربي حمام في الجماعة».

– باسم أنت ماهر في علاج الحمام.. هل يمكنك أن تعالج جناح زكريا. قال صلاح فضحكوا.

– ههههه ذكرتني. كان أخي يرمي الحمامة المريضة في زريبة خلف بيتنا. آخذها. أعتني بها حتى تشفى. هذه وسيلتي للحصول على الحمام. كان قفصي الصغير كلّه من الحمامات المريضات. يكون الجناح المكسور مائلاً أو متدلياً يسحب في الأرض، وعلاجه صعب للغاية



خصوصا أن الحمامة لا تعرف أنّك سوف تساعدها فتحاول نيل حريتها فيزيد الكسر ويلتهب الجرح، لذا كان لا بدّ أولاً من وضع الحمامة المكسورة الجناح في مكان صغير محصور حتى تهدأ.

- كان زكريا يسحب في الأرض. ألم تلاحظ ذلك.

«قال صلاح مقاطعا باسم.»

-لابدّ من تطهير الجرح باليود أولاً ثمّ تثبيت الجناح المكسور في مكانه الطبيعي في الجسم. لا بدّ من مساعدة شخص آخر. لكن كلّ ذلك لن يعيد الحمامة إلى حالتها الأولى. قد لا تطير ولو طارت سيكون طيرانها مضطرباً. يعني.. ستظل مكسورة الجناح حتى تموت. الجناح المكسور يعني الموت.

لم ير أحد زكريا حاضرا في الجماعة بعد ذلك اليوم. زاد من انكساره منع مريم له من دخول الشقّة منعاً نهائيا، ومحاولة عارف محاسبته على مضايقته لها. لم يعد يهتم كثيرا بالحمام. صار يهيم في أحراش النخيل والبحر. يشغله ظلال السعف. رأت مريم الانكسار في وجهه فتألمت لكن ذلك لم يغيّر في قرارها في علاقتها





به. عادت تهتم بالحمام في عجل تتخيّر الأوقات التي لا يكون متواجداً فيها. ترمي لها الشعير عند الباب، وتغيّر طشت الماء بسرعة ولا شيء غير ذلك.

جاءه زائر فرفض الخروج إليه، فلما قِيل إليه أن اسمه «مرزوق» قام مسرعاً. حضنه في الطريق. بالغ في حضنه، وسُمع زكريا يضحك.

– كيف عرفتَ البيت؟

– أوه.. أنت مشهور هنا حتى النسوان يعرفنك.

– متى غادرت السجن؟

– أمممم .. عشرة أيام تقريبا. عرفتُ لا شيء يستحق دخول السجن ساعة. بعد أن غادرت أنت السجن افتقدناك كثيراً. كانت الصباحات طويلة جداً، والليالي باردة. كلّ شيء مملّ له طعم الفراغ لولا حمامة السجن التي صارت تأتي كل يوم، تحطّ على نافذة زنزانتك أولا، ثمّ تحطّ على نوافذنا. الباكستاني صار صديق الجميع. قال مرزوق.

– الله.. وعايشة؟ قال زكريا

– مازلت تذكرها؟ إيه.. قيل أنها تزوّجت وغادرت





تعيش مع زوجها.. تقول النساء أنها ليست سعيدة.

– الله يعينك أنت مثلي إذن؟

– لا، أبداً. سأبحث عن عايشة أخرى.

– قلت لي إنك سوف ترتب خيباتك على السطوح؟

– أنهيت ترتيبها، أخرجت ما في نفسي على كلّ سطح. كنت تقول لنا «النسوان حمام يا جماعة».

– كلّ شيء يختلّ يا صاحب السجن حتى الحمام نفسه.

– لَم كلّ هذا الحزن؟ كنت في السجن أفضل حتى مع هلوستك فيه.

– لا شيء.. لكني أشعر بفراغ الفاقد.. برغبة في الرجوع إلى السجن.

– لا. لا... أنت تعبان.. ما رأيك نذهب إلى بيتنا في «الزلاق» .. البحر حلو.. لونه حلو.. كل شيء هناك حلو خصوصا في الليل.

– هل عايشة من «الزلاق» أيضا؟

– نعم.. إذا جئت سوف نجلس عند ساحل البحر وأريك بيت أبيها، والسطح الأخير.





– أنا ظننت أنها من «المحرق»؟

– والسبب؟

– لا أعرف.. بصراحة لا أدري...

– ههه ربّما من أغنية أحمد الجميري « من المحرق وسيف العين بحريني»

– لو اعتمدت على الجميري لقلت أنها من «الرفاع» أيضا

– قصدك أغنيته « رفاعية رفاعية»

– على فكرة هل عنده أغنية عن «المنامية»؟

– ما أدري.. ما رأيك نسأله؟

– إذن أكيد ليس عنده أغنية عن «الستراوية».

– زكريا ياالجعو؟

– ههه.. نعم مرزوق ياالجعو..

– تعال حبيبي تعال... تعال نغادر إلى «الزلاق» أحسن.

– على فكرة.. ماذا تعني «الجعو»؟

– لا أعرف. ههه

انتزع مرزوق من زكريا ضحكته وأخرجه من

ضيقه ولو قليلا. غابا في حوارهما في الطريق. سارا إلى «الزلاق» بين النخيل. عند منعطف «الزلاق» قال زكريا:

– هنا أقفاص ومحاكر شيخ الحمام.

– ومَنْ شيخ الحمام؟.. صارت نعوت كثيرة : أبو الحمام، شيخ الحمام، زعيم الزاجل وغيره وغيره..؟

– شيخ الحمام.. شيخ من العائلة الحاكمة دخله شوق الحمام، فصار لا يستطيع أن يبدأ يومه قبل أن يرى حماماته.. متواضع.. بدأ يربي الحمام المصري فلما عرف أن هناك شيئاً اسمه الحمام الباكستاني وأنّه يطير ساعات طويلة تولّع به، وسافر إلى باكستان مرّات لإحضاره... يحبّ الصمت والتأمل.. شيخ عجيب

– الشيخ إذا صار متواضعاً يملك الناس.. يملك قلوبهم.. التواضع جمال

صار طريقهما إلى «الزلاق» درب من الكلام. وضع مرزوق يد على كتف زكريا وتذكرا معاً حوادث وشخوص السجن. كانت الشمس قد أوشكت على الغروب. فلما دخل وقت المغرب قال مرزوق:

- ها .. نذهب نصلي؟

- خير؟

- ندخل المسجد نصلي المغرب؟

- أنا لا أصلي.

- لا تصلي؟... ترى الصلاة هي...

- لا تصدع رأسي... اذهب صل أنا سأنتظرك.. خلاص. «قال زكريا مقاطعا».

- على كيفك. نفر مختسف.. أبو الحمام.. قليل الصلوات.. جعو

ظلّ زكريا يفكر في الحمام، وفي «حوّام».. في نعت «أبو الحمام». عاد إليه السأم ودخلته رغبه شديدة في العودة إلى قريته. شعر كأنّ شيئا يضيع منه الآن، وأنّه كلما ابتعد عن مكانه سيفقده أسرع. عليه أن يكون هناك لا هنا. لم يستطع مرزوق إقناعه بالبقاء الليل كلّه جوار ما بقي من بحر «الزلاق» مع الشاي والكلام وسيرة أهلها الطيبين. سيرة البحر، الدور الشعبية والغناء، وشركة الزيت «بابكو». أغراه بالحديث عن عايشة وقصة حبّه التي صار يعرفها الزلاقيون فلم يلتفت. عاد



يحاول تذكيره بـ «حمامة السجن» فلم ينفع. تشكّلت في داخله صور كثيرة لمريم. رأى أنّ كلّ شيء يفوته. رغبات الإنسان ليست بطيئة. أسئلة سريعة وعشوائية عمّا يحدث الآن هناك في غيابه. غادر زكريا «الزلاق» على عجل. عندما دخل البيت وجد كلّ شيء هادئاً حتى أخيه عارف عاد لا يصدر صوتاً عندما يشرب الشاي. ناداه قبل أن يصعد السلم:

– تعالْ.

– خير؟

– مزاجك غلط.

– ماذا تريد؟

– أبداً.. نحن أخوة.

– للتو عرفت. . تصوّر؟

صعد إلى شقته. كانت أسئلة فاطمة بانتظاره. صرخ في وجهها حتى لم يعد في البيت هدوء. نزل جهة الباب ممتلئ بخسارات لم يرها في حياته قطّ، فناداه عارف:

– تعالْ.



لا تحتاج المرأةُ إلى الكثير لكي تبكي فكيف إذا كان السبب خيانة موثّقة بالصور الفوتوغرافية في بيت نساؤه من كلام.

استقبلتْ أميرةُ مريمَ في بيت أبيها بالحضن والبكاء. كانت تتحدث وهي تبكي. أعادتْ عليها قصة كشف الصور بالتفصيل. سردت كلّ ما في الصور و لم تغادر حتى نوع علب السجائر. كانت مريم تعرف كلّ شيء، لكن لا بأس بالإصغاء إلى الحكاية من جديد. هي تعرف أنّها تلتذّ بذلك فأصغت إليها و لم تنشغل عنها طرفة حسّ، وتعرف أيضا أن الكلام يخفّف من وطأة الصدمة.

– خذي وقتك أميرة. ليس بالضرورة تعودين اليوم.

– ممكن تساعديني في أمر آخر.

– عيوني.

– أتعرّض لمضايقات من شخص، زادت مضايقاته بعد أن عرف أني غادرت بيت زوجي.

– من يكون؟

– هو من حيّكم.. قريب من بيت أبيك..

– خبريني بسرعة من يكون؟

– سليمان ولد خديجة دانوه.

– دانوه.. دانوه؟

– إيه..

– وكيف يعرف أخبارك؟

– والله لا أعرف.

– لكنه وسيم... كنا نسميه الفرخ. رقيق. كنا أطفالاً نراه يختبئ في عباءة أمه، ويخرج من الجهة الأخرى مثل فرخ الدجاج، فسميناه الفرخ. أحياناً يسقط بين رجلي أمه من الخلف فنضحك ونقول «ولدت .. طلع الولد». فلما كبر صار يطلّ من حديد نافذة بيت أبيه قبل هدمه، ولا يخرج إلى الطريق فسميناه «السجين». كان طفلها الوحيد.

– صار الولد السجين صحافياً تنشر صورته كلّ يوم تقريباً. أنا أحبّ أقرأ ما يكتب.. اتصلت به أكثر من مرّة. كان رقيقاً معي.. لطيفاً.. طلب مني أن ألتقي به لكني رفضت.

– بينكما تواصل؟



– يعني.. إيه.. لكنّه اتصال طبيعي جداً.. هو يحاول أن يكون الاتصال مختلفاً

– أعجبك؟

– يعجبني ما يكتب.

– إيه.. يقول محمود درويش « هي لا تحبّك أنتَ.. يُعجبُها مجازك».

– مريم يا مريم. نحن في سليمان أم محمود؟

– لا تهتمي أمّورة. سوف أنتف من أجلك مجازاته وريشه.. الصحفي أبو الريش.

– ممكن؟

– طبعاً ممكن؟

– أعني أن تنقلي تحياتي إلى عارف؟

– هلا.. هلا.. ظننته أبا المجازات؟

– أوووه ..«ضربتها على كتفها، وهي تبتسم».

في البيت حذرتْ مريم زكريا من إهماله غير المبرر للحمام، وأنها تظلّ أحيانا يومين بلا ماء. أعجبه اهتمامها بحمامه لكنّها لم تكرر ذلك وأنّها قالت ذلك رحمة بالحمام لا التفاتاً إليه، ولما به، وأنّها تعني « أنت



مهمل». وعلى الرغم من ذلك أعجبه اهتمامها فامتلأ نشاطاً. دخل قفصي الحمام. قام بنشاطه المعتاد. أطلق الإناث أولاً من محاكرها تأكل مع الحمام العادي، تحت مراقبته. لا يهتم زكريا باختلاط أنساب الحمام العادي "الدشتي". فلما امتلأت الإناث أعادها وأطلق الذكور. يتذكّر قولها له فيفرح كثيراً ويحزن كثيرا أيضاً. يلتفت للحمام ويهمله في آن. امتلأت الذكور، فأخذ يعيدها إلى محاكرها. أعاد حمامة إلى غير محكرها فلم يلتفت إلا عندما اضطربت الحمامتان فيه ونُتف ريش إحداهما وتطاير من شبك المحكر. تأكد أن الحمام في محاكرها وغادر. كان يفعل ذلك ولا يحتاج إلى التأكد. غادر، نسي محكر حمام «الراهبة» مفتوحاً فلما اقتربت الأنثى من الباب انفتح. هبطت الحمامتان إلى الماء والطعام مرّة ثانية يأكلان ويشربان متجاورتين. لم يحدث ذلك لهما إلا عندما كانا فرخين لم يكتمل ريشهما. ظلا يأكلان ويقبلان بعضهما البعض فاقترب الحمام "الدشتي" منهما. زاحمهما. اقترب بعض الذكور من أنثى الراهبة. صارت تدافع وتنقر رقابهم حتى امتلأ منقارها







بالريش الصغير.

خرجت مريم إلى الصحيفة التي يعمل بها سليمان برفقة عارف في سيارته. قالت له ستزور صديقة لها كانت معها في الجامعة. طلبت منه أن يكتم خروجها عن الجميع.

كان دخان السجائر يملأ مكتب سليمان غير المنظم في شيء. في الصحافة لا وقت للنظام، لا وقت للزينة، لا وقت للمكاتب الفارهة. في الصحافة كلّ شيء يأكل في الصحفي بِدءا من أظافره وانتهاء برائحة جواربه. سلم عليها سليمان بحرارة فمدّت يدها تصافحه. أشعل سيجارة، وأشعل معها ما يدخره لمريم من ذاكرة في الحدود التي أتاحتها له أمه. كان يرى مريم في المسافة التي تسمح بها نافذة البيت. وهي مسافة قصيرة جداً يفوت سليمان منها الكثير إذا لم يلتفت. حفظ كلّ شيء في هذه المسافة حتى سيرة حركة الحجارة الصغيرة في الشارع غير المسفلت. وقد تعينه بعض نقع ماء المطر على زيادة المسافة بما تعكسه من مشاهد من الأعلى.

– هلا مريم هلا.. هلا بالعاشقة الصغيرة. «يضحك».





– هلا.. هلا بالسجين الصغير.

– بعدك شيطانه؟ والله كبرت وصرت جميلة أكثر. ماذا تفعلين؟

–شكراً... لا شيء .. أدرس في الجامعة.

– لغة عربية وليس سواها؟

– ههههه لا.. انجليزي . خيبتُ ظنّك، لكن لغتي العربية قوية.

تسليا بحكايات الحيّ، وناسه، وحوادثه، كانت مريم أبرع منه في ذكر التفاصيل والأسماء. التفتَ سليمان إلى ذلك فنالت منه بذكر سجنه المنزلي، وأنّه سبب قلة معلوماته عن الحيّ وما فيه.

– عظيم.. الصحفي الجيد يحتاج إلى عين تشبه عيون القطط، ولياقة من القطط، تلتقط كلّ شيء ولا تملّ النظر. ولو طُرد القطّ عاد وكأنّه لم يُطرد، يتنقل بين بيوت الناس دون استئذان ويعرف كلّ شيء عن البيوت وأسرارها، لا يضيع في الطريق. أرى فيك خصال الصحفي الناجح.

– قصدك القط الناجح؟

– ههههه. ماذا لو تشتغلين عندنا في التحقيقات؟



– أنا أحب القراءة والكتابة لكني لم أكتب للصحافة قطّ.

– ليس صعباً أن تكتبي للصحافة .. سوف أزودك بنماذج من الكتابات بعدها نجلس نرى كيف كُتبت.. ما رأيك؟

– وأصبح تلميذة السجين؟

– هههه .. أتشرف.

– وألبس مريولاً أزرق؟

– بعد أحلى وأحلى.

– لكن زوجي لن يقبل. هو لا يعلم بزيارتي هذه.

– ها.. أنت متزوجة؟ حسبتكِ.... يعني.. ممكن تكتبين باسم مستعار.. إيه .. اسم مستعار. تصوري ونحن في عصر الحريات وما يزال هناك رجال متخلفون بهذا الشكل.كان الله في عونك، وكيف تقاومين هذا الرجل؟ عفواً أقصد كيف تعيشين معه؟

– أفّ.. هذا وجعي الكبير.. كبير جدا.. أختنق كلّ يوم.

– الرجال أولاد كلب..



– هههه .. من زمان..

– لكنني فتىً!

صارت مريم تشكو وهو ينتظر المزيد. الشكوى عتبة لفتح الحلاوة. تقابلا في مطعم عائلي خلف ستارة مرّات. في المرّة الأولى طلبا قطعة كعك بالشوكلاته وقهوة إيطالية «كابتشينو». جلسا متقابلين. مررت أصبعها في رغوة الكابتشينو ثمّ مصّتها. قالت:

– لا معنى للكابتشينو من غير رغوة؟

– الحياة أيضا.

مررتها ثانية، رفعتها إلى شفتيها فأمسكها بقوة. سحب يدها نحوه فصار صدرها فوق الطاولة. مصّ أصبعها ببطء شديد. مرر أصبعه في رغوة قهوته وقربها نحو فمها فمصّتها على مراحل. أمسكتْ يده، تدخل أصبعه قليلاً قليلاً. عضتها. استشعر دفء فمها ورقته ولينه. فعلا ذلك حتى لم يبقَ أثرٌ لرغوة في كوبيهما. قال:

– نبدأ العمل في كتابة التحقيق الصحفي باختيار حدث ما أو ظاهرة ما في المجتمع ثم..

فلما انتهى سليمان من درسه الأوّل عبرت مريم الطاولة

إليه. جلست جواره صارت تضع الكيك في فمها ثم تدخله في فمه. قالت:

– ما رأيك؟

– في ماذا؟

– أن أعمل تحقيقا عن مربي الحمام.. عن جماعة الشوق؟

– الفكرة جديدة.. لكن مَنْ جماعة الشوق؟

– هم مربو الحمام... يسمون تربية الحمام والدخول في مسابقاته بـ«الشوق». سوف أكتب حتى عن زوجات مربي الحمام، وأطفالهم، وشققهم، ونفسياتهم، وسيرهم مع الحمام، وسطوح المنازل، وعلاقة الحمام بالحبّ. مربو الحمام طاقة حب وتأمّل. ما رأيك؟

– سيكون بالفعل تحقيقا رائعاً.. لكن كيف ستنجزينه؟ سيحتاج منك إلى لقاءات كثيرة؟ ماذا عن زوجك المتخلف؟

– سأقول له عندي بحث للجامعة. لدي معلومات كثيرة وسير بعض مربي الحمام، ولن أحتاج إلى لقاء غير اثنين أو ثلاثة منهم.



– أنا موافق.. متى تبدئين؟

– الآن..

– ههههه حلو ... حماسك لذيذ مثل شفتيك.

«ابتسمت».

اعتاد «عباس» على سماع كلمة «بحث» للجامعة من مريم. كان لا يكترث ولا يهتم. فلما قالت له أنّ موضوع بحثها «مربو الحمام.. شوق جماعة الشوق» تغيّر الوضع في الشقّة كلها. ركبته عصبية غير عادية ونعت مريم بنعوت آلمتها. أرادت أن تشرح له فقاطعها:

– لا .. يعني.. لا.

– لن أغيّر الموضوع.. سأكتبه.

– أنا زوجك.. أنا أهم من الجامعة.

– غير صحيح.. أنت تحطمني في كل مرّة.

– هل هذا موضوع؟ اختاري غيره.

– لا..

انفعل أكثر فسحبها من جيبها فصرختْ. دفعها إلى خزانة ملابسها فاصطدم جبينها به بقوة. جلست تبكي عند الخزانة، تمسك رأسها. تورّم جبينها بشكل



لافت. هاتفتْ أخيها إبراهيم فجاء في عجلة لأخذها. نزلت على السلم تبكي. رأى أهل البيت تورّم جبينها، واضطراب مشيتها. هذه المرّة لم تغطيه بمستحضرات الزينة مثل «كريم الأساس». تركت كلّ شيء واضحاً للجميع. عند باب البيت قال عباس لإبراهيم:

– اطلب من الله أن يستر على أختك.. علموها كيف تطيع زوجها.

عادت مريم إلى غرفتها في بيت أبيها. يمكنها الآن أن تقفل بابها وقت ما تشاء. تخرج إلى الحي بلا خوف. هنا تشعر بقوة المكان، ومساندة تاريخه وسيرته. تستطيع أن تسرّ إلى أختها بما لا تقوى على قوله هناك. هنا أيضا.. لا تبعد شقّة سليمان السجين الصغير عن بيت أبيها غير مسافة انتهاء نيّتها. سليمان صار يسكن وحده بعد رحيل أمه.





كان زكريا يتصل بالبيت كلما غاب.. يأتي المكان كلّه في باله.. الآن لا يحدث ذلك.

لم يعد في باله غير جهة مرزوق.. قرية «الزلاق». زاره المغرب على غير موعد فحضنه بقوة ورحّب به:

– أهلا بصاحب السجن.

جلسا جوار البحر بصحبة الشاي والقهوة والتمر والكلام.

– يا صديقي الشاي متسكّر ولذيذ. قال مرزوق.

– أنا المتسكّر.. «أخرج زكريا نفسا عميقاً».

– نشربك بدلاً من الشاي؟

– ليت الدنيا تشربني.

– وسّع صدرك يا صاحب السجن.. استهدي بالله.

– أي واحد؟

– هههه.. لا.. راحت، ورحنا ملح.

– هي فعلا راحت.. راحت بعيداً.. طارت.. «بَنَّدَتْ» في السماء وما رجعتْ. لما الحمامة «تبنّد» في السماء يفرح صاحبها. يدخله الغرور اللذيذ الممزوج بالانجاز. لكنه بعد قليل يحزن... يموت من القلق عليها.. يصير

كأن في قلبه فراغ واااااااااااسع جداً.

– وإذا ما رجعت؟

– ربّما ترجع بعد يوم أو يومين أو أسابيع أو شهر.. لكن عودتها غير مؤكدة. لا يعرف أحد مصيرها. يقولون «بنّدت» وما رجعت.

– يعني عايشة بنّدت؟

لم يرَ مرزوق مرّة شفتي زكريا ترتعشان ارتعاش ما قبل البكاء:

– كيف أشرح لك ماذا تعني مريم عندي؟ بخلاف كلّ النساء كانت مريم عين نساء البيت. هي الحمامة التي لا ترى بَهاء السماء إلا بها. أنوثتها ترفرف في وجهها، حركاتها، إشاراتها، كلامها، قيامها وجلوسها، صوتها، غضبها، إشارات بدء الغضب في عينيها، رضاها، ضحكتها، صمتها، فكاهاتها، جنونها، سخريتها، خبثها. خطط الخبث فيها. ضحكتها عندما تكون في أشدّ حالات الضيق. كلّ ما فيها يبدأ برقّة الأنثى. كلّ شيء فيها حمامة. قالت النساء في الحيّ: ما فيها شيء غير.. هي واحدة مثلنا. لكن.. النسوان في حيّنا





ناقصات حسّ وزينة. أنا كنت.. كنت لا أعرف شيئا. الآن وبسببها أعرف: اللباس الأنيق، الذوق، الكلام، أسرار الجسد، أسرار العيون، وكلّ الذي كان قريباً مني ولا أراه. أنا حبّها في البيت. قالت لي مرّة: أنتَ حمامة القلب.. فلم تُبقِ لغيرها مكاناً. صارت الحمامة القادرة على امتلاك سمائي.

لها لمسة غير، حضن غير، قبلة غير، رغبة غير، طعم غير، حتى عندما تنتهي منها لا يدخلك ضيق ولا نفور. في المرّة الأولى حصل ما حصل بيننا.. قصدي حصل ما لم يحصل لي من قبل. انتهينا. وضعت وجهي بين يديها قالت «اسمعْ.. إياك أن تشعر بالذنب». لم أتوقع أنها ستقول لي ذلك. مريم هكذا امرأة تأتي بما ليس في بالك. تأخذك بيسر إلى ما في بالك. تضعك في المتعة. معها اشتغلت طاقات في جسدي وحسّي كانت قبلها ساكنة لا أعرفها. قبلها لا أعرف أن التذوق يمكن أن يكون طويلاً، يتجاوز القانون الطبيعي والعصبي في التذوق.

والآن لماذا تفعل بي كلّ ذلك؟ تعرف؟ كنت مرّة





أحمل طفلتي «فاتن» في صحن الدار فلما رأيتها تنزل على عتبات السلم خفّ ما أحمله. نسيت أني أحمل «فاتن».. فتنتني عن فاتن.. شغلني حمل عن حمل. محال أن تعرف مريم ولا تحبها.. محال يا مرزوق.. سكرتُ بها مثل حمامة «بَنّدَتْ» في السماء واستقرّت في نقطتها فلم نعد نراها بالعيون المجردة.. وكنت جوار فاطمة على السرير ولا تراني، ولا أراها. تصوّر أن تكون على السرير وجوارك زوجتك ولا تراها؟ سريرك بارد حتى لو تعرّت. المكان بارد. عشّش الحمام المطوّق البرّي غير الأليف في نافذة غرفة نومنا وفرّخ. تعرف لماذا؟ لفرط السكون في غرفة الحبّ.

مريم صفاء عيون الحمام. وجه الصباح. هواء البحر في الليل عندما يصخّ الناس ويغيبون. معها لا تغفل الابتسامة عنك. مريم حبّة القلب، زهرة الرمان، رائحة البستان. تجلس جوارها فلا تشعر بعطش ولا جوع، ولا تعرف أنّها متزوجة حتى تقول. لا أعرف كيف تفعل ذلك لكنّها تفعله وهذا هو المهم. كنت أشعر أنها غريبة في بيتنا، وأنّ روح الحمام الحوّام فيها زاد



من غربتها. كلّ ما فعله أخي «عباس» من أجل حكرها وحصرها لم ينجح. كانت تطير بعيداً عن البيت وتعود فلا يشعر هو ولا البيت كلّه بذلك. امرأة تطير من أجل الحبّ ولا تهتم. كلّما منعها نمى حبّها. عرفت حينها أنّ الحبّ هنا يأتي من المنع. والله لو قِيل لي يوماً أنّ جسمها امتلأ بالريش ما كذّبت الخبر.

هل أخبرك عن جسدها؟ خصرها؟ أصابع يديها؟ صدرها؟ عينيها تسعان لياقةَ الحمام. تقف فتنهض عيناك، تجلس فلا يفيض شيء من جسدها. كلّ شيء فيها صنعه الله على مهل وقَدَر، ما خلقها في عجل. لكن.. إذا كان الله جعلني أحبّها فلماذا يبعدها عني الآن بالذات؟ وبهذه السرعة؟ أنا لم أعرفها في طفرة حتى أفقدها في طفرة؟ لماذا هو مصرّ على إخفائها؟ ما الحكمة من ذلك يا مرزوق وأنت تصلي كلّ يوم؟ هل تكشف لك الصلاة عن حيرتك؟ هل تكشف لك لماذا يهب الله امرأة – فيها عاطفة الحمام كلّه – رجلاً مثل عباس؟ هل تكشف لك حكمة التوزيع؟ فقدتُ مرّةً مقص ريش أجنحة الحمام. بالغت في البحث عنه فلم







أجده. سألتها عنه فقالت «تعال أنتف ريشك به لتتألم مثل الحمام». بعدها لم أقصّ ريشة واحدة. تصور يا مرزوق أنا لم ألتفت إلى ذلك؟ لماذا يمنّ الله على عبده بامرأة تعلمه كيف يلتفت؟

– طحنتك مريم.

– كانت تطحن لنا من فتنة البيت حُبّاً. تعود من الجامعة عصراً. تدخل صحن الدار تحمل كتبها مرهقة بالدرس. تُلقي السلام على أمّي أولاً ثمّ توزع علينا ما بقي فيها من طاقة العيون. كلما بدا عليها الإرهاق، ومالت الكتب تتأفف مثل صبيةٍ تتصنع التعب. أتعبتني يا صديقي. تدخل فتُشعل صحن الدار بالنعوت. ليس في بيتنا شخص لم يهبها نعتاً أو نعتين. هي صبية من نعوت. بها صارت نساء البيت ذاكرةً من نعوت. عندما تعرينا في المرّة الثالثة أو ربّما الرابعة أذهلتني كثرة الخيلان في جسدها. سألتها عنها فقالت «مصابيح جسدي» . سألتها ساخراً «متى تُضيء؟» فقالت «في العَتمة». كلما نزلتُ إلى الأماكن الداكنة في جسدها كثرت المصابيح. أوشكت أن أسألها سؤالا آخر فقاطعتني: «سلْ خيلاني». قبّلتها



في كلّ خال ولكثرة ريقي عليها شعرت أنّها تتكاثر. مريم.. عرفت بها الكلام. عرفت بها الحبّ. عرفت بها الآن كيف أضيع.

– صنعتك مريم.

– حدثتني زوجتي فاطمة قالت « في صباح عرس مريم نزلتْ بمشمرها الأخضر المزيّن بورود من خيوط الذهب يتقدّمها الخجل. قبّلتْ نسوة البيت. جلستْ في صحن الدار. دارت عمتي أم عبد الله تبخّر المكان بالعود، تستقبل المهنئات من نساء الحيّ. استنكرت نسوةٌ من الحيّ كشف مريم لجزء من صدرها وساقيها المخضبين بنقش الحناء فكانت عمتي تقول: «زهوة العروس». عادت النسوة مذكرات عمتي : «لكننا لم نر ذلك في زوجات أولادك؟ ما رأيناه في فاطمة ولا في زوجة عبد الله؟» فقالت عمتي: «مللنا من غمغمة العروس». كانت فاطمة تروي وأنا أكاد لفرط اللهفة أرى. لم أصغِ لفاطمة مثلما أصغيت لها تلك الليلة. كلما توقفت فاطمة أستفزّها بالسؤال، وأنّها ترى أكثر من نساء البيت.





– أنا لا أعرف كيف كان عرس عايشة، لا أحد يروي لي هنا. نساء العائلة قاطعن حفل زفافها. تقول أختي أنّ النساء روين قصتي مع عايشة كثيراً أيام عرسها. استهجنت الناس زواجها وأنا في السجن من أجلها. الحمد لله –يا صديقي– أنا لا أنكح الخيالات، ولا أتوسّد الذاكرة. راحت عايشة تأتي عايشة «قال مرزوق»

– لكنّ مريم .....

يسكتُ عن زكريا الكلام. يسهو، يُحدّث نفسه، ويشير بيده إلى أشباح تحيط به. يلتفتُ إليهم، يحاورهم بهمهمة الكلام. يبتسم، يغضب، يندهش، يفتح عينيه. ينكسر. ينكسر أكثر.



بعد ثلاثة أيام تفقّد حمامه فتفاجأ عندما وجد أنثى حمامة «الراهبة» قد توالفت مع ذكر حمام ليس من فصيلتها. كان من أرخص الحمام. نظر إلى محكرها فوجده مفتوحاً. نسي عمّا إذا كان هو السبب أو لا. أطلق الإناث من محاكرها للأكل. انتظرها تشبع. بعد لحظات أعادها وأطلق الذكور. أعاد حمامة الراهبة إلى محكرها مع ذكرها السابق فصارت تضربه حتى أخرجت

الدم من زاويتي منقاره ونتفت ريش رقبته. لم تهدأ حتى أطلقها إلى القفص. قال في نفسه:

– «حتى التوزيع الصحيح غلط».

بعد مرور أكثر من خمسين يوما على غياب مريم فُجعتِ العائلة بموت الأم التي لم تهدأ يوماً. الأم التي كافحت ليبقى كلّ شيء مفتوحاً في البيت: القلوب والأبواب. لم يمضِ كثيراً على رحيلها حتى جدّت أمور واختلت أخرى. اختل نظام توزيع أيام الغداء على البيوت والشقق الصغيرة. ضعف الالتزام بتلك العادات. صار أهل البيت يسمعون لأوّل مرّة في تاريخ البيت أصوات أقفال أبواب الشقق مرّات في اليوم. يسمعونها تنفتح وتنغلق ليلَ نهار.

صعد زكريا إلى قفصي حمامه. غطّى أرضهما بالشعير والحبوب. فتح المحاكر كلّها على بعضها البعض. فتح الحمام على الحمام. تركها مفتوحةً وهام.



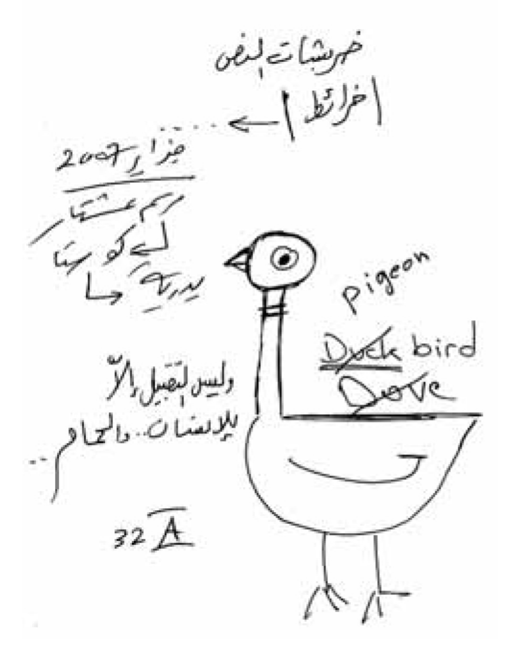


كُتبت بين فبراير 2007 وفبراير 2008

المنامة ـ البحرين

H A W W A M





www.makanphoto.com

